تيار الشعوبية فى أدب الجاحظ

دكتور
على محمد السيد خليفة



تليفاكس ؛ ٥٢٧٤٤٣٨ / ٠٣ - الإسكندرية

تيار الشعوبية فى أدب الجاحظ

دكتــور

على محمد السيد خليفة

كلية التربية بالعريش - جامعة قناة السويس

الطبعة الأولى

2011م

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس : 5274438 - الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾

"سورة الحجرات: آية 13"



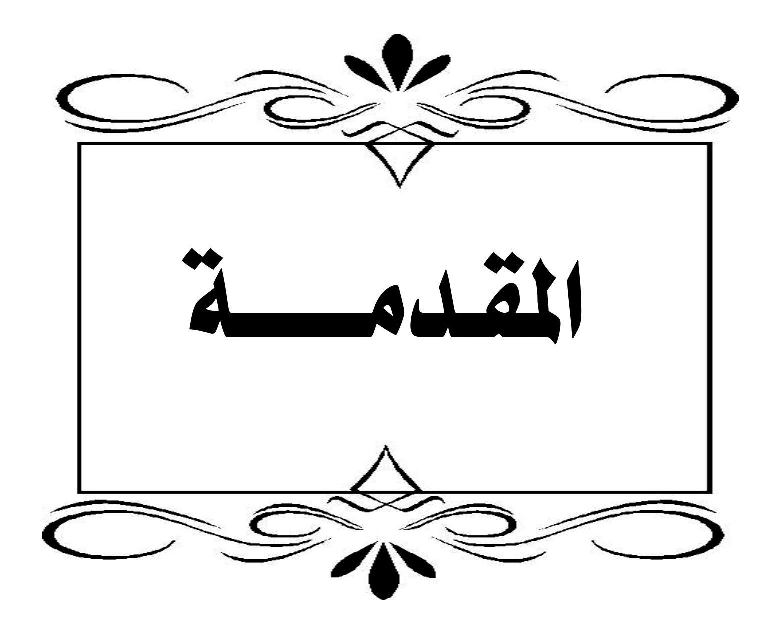
الإهداء

إلى أعز الأصدقاء..

صاحب القلب النقى والروح الشفاف

والابتسامة المشرقة ..

محمد أحمد يوسف



المقدمة

هذا الكتاب هو جزء من رسالتى للدكتوراة، وهى بعنوان "أدب الجاحظ فى صلته بتيارات عصره السياسية".

وفى هذا الكتاب أتناول تيار الشعوبية فى أدب الجاحظ، ذلك التيار الذى كان هادرًا فى العصر العباسى الأول على وجه الخصوص، ووقف له الجاحظ – على رأس الكتاب والمفكرين المدافعين عن العرب – بالمرصاد يبطل حجج أنصاره وأشياعه من العناصر والأجناس المختلفة خاصة الفرس.

ويهاجم أيضًا الزنادقة الذين أدَّى بهم الانجراف فى تيار الشعوبية إلى مهواة الزندقة. وهو فى كل هذا يدافع عن العروبة والإسلام أمام أعدائهما من الشعوبيين والزنادقة.

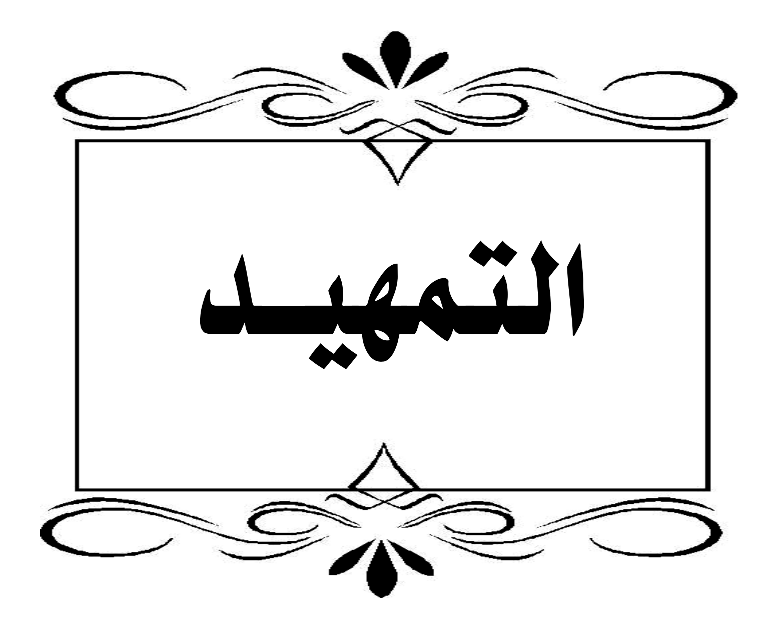
وقد قسمت هذا الكتاب إلى تمهيد وثلاثة فصول.

تناولت فى التمهيد مفهوم الشعوبية والتسوية عند الجاحظ، ثم عرضت للدور الكبير الذى قام به الجاحظ فى التصدى للشعوبية.

والفصل الأول درست فيه مؤلفات الجاحظ التى واجه فيها الشعوبية، وفى الفصل الثانى تناولت أنواع التيارات الشعوبية ومواجهة الجاحظ لها، وفى الفصل الثالث درست العناصر الشعوبية واتهاماتها للعرب ورد الجاحظ عليها.

وذكرت بعد ذلك قائمة المصادر والمراجع التى اعتمدت عليها فى هذا الكتاب.

ولا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أتقدم بوافر الشكر لأستاذى الأستاذ الدكتور سعيد حسين منصور الذى أشرف علىّ فى رسالتى الماجستير والدكتوراة، وأفدت الكثير من علمه الغزير وكتبه القيمة.



التمهيد

مفهوم الشعوبية والتسوية عند الجاحظ

يوجد اختلاف كبير بين المؤرخين والباحثين حول تحديد مفهوم الشعوبية والتسوية[١]، وتحديد الوقت الذى ظهر فيه هذان المصطلحان.

وما يعنينا هنا أن نذكر مقصود الجاحظ بهذين المصطلحين، وننظر مدى الاتفاق والاختلاف بين مقصود الجاحظ لهما، وما ذكره غيره من المؤرخين والباحثين لمفهومهما.

أما عن مصطلح الشعوبية فيبدو أن الجاحظ يرى أن أصله مأخوذ من الشعوب، التى تعنى الدائرة الأوسع فى النسب، وتقابلها العشائر، وهى تعنى الدائرة الأصغر فى النسب؛ ولأن العجم يزيد عددهم عن العرب بكثير فلهذا ينسب إليهم لفظ الشعوب، فى حين أن العرب ينسب إليهم لفظ العشائر، ويفهم هذا من قول الجاحظ: إن رجلاً خرج من بلده إلى ملك من الملوك ولم يزل عنده عظيم الشأن جليل السلطان "تدين له من عشائر العرب سادتها وفتيانها ، ومن شعوب العجم أنجادها وشجعانها"[٢].

ويتفق قول الجاحظ فى نسبته الشعوب للعجم والعشائر والقبائل للعرب مع ما جاء فى المعاجم حول تعريف لفظ الشعوب ولفظى القبيلة والعشيرة [٣]، وكتب التفسير حول تفسير قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾[٤].

على أن الجاحظ – ومن قال بقوله فى نسبته الشعوب للعجم والقبائل والعشائر للعرب – ربما يكون قد قصد أمرًا آخر، وهو أن الشعوب هم الذين ينسبون إلى المدائن والقرى، والقبائل: الذين ينسبون إلى آبائهم [٥] .

فقبائل العرب تعتز باحتفاظها بأنسابها، وأصالة دمائها، وهـذا ممـا تتباهى به على العجم التى لا تهتم بالأنساب، وإنما يـرتبط أهلهـا بالمـدائن والقرى التى يعيشون فيها وينتسبون إليها.

ومن هنا فإننا نستنتج أن لفظ الشعوب قد أطلقه العرب على العجـم ، تعريفـاً لهم بأنهم الدائرة الأوسع فى العدد مقارنة بقبائـل العـرب، وأيضًـا لكونهم غير محددى الأنساب فقد نسبوهم إلى الشعوب المجهولة الأنساب.

وهذا التعريف من العرب للعجم بالشعوب قد سبق بـوادر الصـراع العربى الشعوبى، ويفهم ذلك من الأثر الذى جاء فيه "أن رجلاً من الشـعوب أسلم فإنه يعنى من العجم"(٦).

ويبدو أن العجم لم يضايقهم تعريف العرب لهم بالشعوب، فهـم قـد يجدون فيه ما يدل على أنهم الأكثر عددًا، وأنهم قطعوا شـوطًا كبيـرًا فـى الحضارة، فهم قد تعدوا طور القبيلة المتقوقعة فى أنسابها الضيقة إلى طـور الشعوب النابذة للأنساب الضيقة الموغلة فى الحضارة والعمران.

أما عن لفظ الشعوبية فيبدو أنه أطلق علـى العجـم بعـد أن ظهـر التيار الشعوبى المعادى للعرب فـيهم، ووضـحت معالمـه فـى العصـر العباسى الأول(٧).

والجاحظ فى كتبه دائمًا يستخدم لفظ الشـعوبية – نسـبة للشـعوب الأعجمية – قاصدًا به تلك الطائفة من العجم التى تحتقر العرب وترى لنفسها فضلاً عليها.

ومن ذلك قول الجاحظ: "قالت الشعوبية ومن يتعصـب للعجميـة"(٨). ثم يأتى بأقوالهم فى الهجوم على عادات العرب فى الخطابة والحـرب ومـا إلى ذلك.

وكذلك يقول فى موضع آخر من أحد كتبه: إن العصبية والحمية هما "ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية، وما قد صار إليه المــوالى مــن الفخر على العجم والعرب"(٩).

فى حين يرى الجاحظ أن مصــطلح التســوية مخــالف لمصــطلح الشعوبية، فمصطلح التسوية عنده يعنى المساواة بين كــل النــاس أمــام الله، وعدم تفضيل أمة على أمة أو جنس على جنس إلا بالأعمال. فالجــاحظ فــى كتابه العثمانية يأتى بالآثار والأخبار على عمل الخلفاء الراشدين- خاصة أبا بكر وعمر – بالتسوية بين الناس وعدم تفضــيلهم العــرب علــى المــوالى والعجم، ثم يقول: "فإن كان هذا لا يدل على التباعد من الحميــة والأعرابيــة والعصبية، ولا يدل على التسوية ، فما عندنا ولا عند أحد شــئ يــدل علــى شئ"(١٠).

ويتوسع الجاحظ فى عرض أدلة أنصــار التســوية، ولا يخفــى أن الجاحظ يقف إلى جانبهم؛ لأنه يعرض حججهم من خلال أحاديــث النبــى ﷺ وأقوال الخلفاء الراشدين، ويستفيض فى ذكرها(١١).

على أن الجاحظ عندما يطلق على الشعوبية لفظ أهل التسوية فــذلك على اعتبار أنهم سموا أنفسهم هذا الاسم، ويُظْهر الجاحظ عند نسبته لهم هذا الاسم – أهل التسوية – أنه اسم اختاروه هم لأنفسهم تســترًا خلفــه، وحتــى يظهروا أنفسهم أمام الناس بمظهر طلاب الحق الذى ارتضاه الله ورسوله ﷺ.

وهذا يعنى أن الجاحظ لم يكن يرى استحقاق الشعوبيين لأن يتســموا باسم أهل التسوية، يقول الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين: "ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية وبمطــاعنهم علــى خطبــاء العرب ...."(١٢).

فهؤلاء الشعوبيون – عند الجاحظ – قد تحلوا باسم التسوية ، ويالهـــا من حلية خادعة يوهمون بها الناس أنهم طلاب حق ، ولكنهـــا حيلـــة زائفـــة يكشف قناعها الجاحظ ليرى الناس بشاعة المتحلين بها من الشعوبيين أعـــداء العروبة والإسلام.

الدور الكبير الذى قام به الجاحظ فى التصدى للشعوبية

كان الشعوبيون من الفرس فى العصر العباسى الأول قد اطمأنوا إلى قوة نفوذهم بعد أن قامت الدولة العباسية على أيدى الفرس، وأصـــبح كثيـــر منهم وزراء للدولة وكتابـــًا لها، حتى لقد صارت وظيفة الوزير حكرًا عليهم؛ ولهذا فقد أصبحت خلاياهم الشعوبية التى كانت نائمة فى العصـــر الأمـــوى – أو أشبه بالنائمة – فى شدة اليقظة فى هـــذا العصـــر، وأخـــذت مظـــاهر الشعوبية تتضح كتيار شديد يحاول أن يعصف بالدولة العباسية، ويعيد المجـــد الفارسى والأديان الفارسية إلى الوجود مرة أخرى علـــى مســـرح العـــراق وفارس على وجه الخصوص.

وقد بدت الشعوبية بأشكالها المختلفة: سياسية ودينية وأدبية، ذئابـــًا تحاول أن تنهش فى الدولة العباسية؛ ولذا كان لابد من أن يكون هناك كتـــاب تجرى دماء العروبة فى عروقهم وحب الإسلام يتردد فى قلوبهم ليقفوا أمـــام هذه الذئاب الضارية.

ولقد كان من حسن حظ الحضارة العربية الإسلامية أن يكون الجاحظ على رأس المدافعين عنها أمام معسكر الشعوبية وضجيج إساءاته للحضـــارة العربية الإسلامية(١٣).

وتتعدد المعارك التى خاضها الجاحظ ضد هذا المعســـكر الشـــعوبى، وتكثر الجولات التى ناظرهم فيها وفضح نواياهم الخبيثة ضد الإسلام والدولة العباسية، وكشف ادعاءاتهم الباطلة، حتى ذكر شيخ نقاد العرب عبد القـــاهر

الجرجانى الجاحظ بكثرة وقفاته مع الشعوبية وتسفيهه إياها، وذلك فى قولـــه: "ونرى الجاحظ يدَّعِى للعرب الفضل على الأمم كلها فى الخطابة والبلاغـــة، ويناظر فى ذلك الشعوبية، ويواجههم ويسفه أحلامهم فـــى إنكـــارهم ذلـــك، ويقضى عليهم بالشقوة وبالتهالك فى العصبية، ويطيل ويطنب"[١٤].

كما يذكر أستاذنا الدكتور سعيد منصور أن الجاحظ لكثـــرة مؤلفاتـــه ووقفاته مع الشعوبية – قد غدا موضوع الشعوبية "منسوبـــاً إليه مقترنـــاً بـــه وبجهوده الكبرى"[١٥]، وإن اتصلت به جهود بعض الكتاب من غيـــر بيئـــات المتكلمين، كابن قتيبة.

وقبل أن نعرض لأنواع التيارات الشعوبية المختلفـــة التـــى واجههـــا الجاحظ، ولعناصرها، وللقضايا التى صارعهم فيها وهدم حصونهم عنـــدها – نحب أن نذكر فى الفصل الأول من هذا الكتاب تلك الكتـــب التـــى تعـــرض لهم فيها.

- هوامش التمهيد -

(١) د. خليل جفال : الشعوبية والأدب أبعاد ومضمونات. بيروت، دار النضال، ط١، ١٩٨٦م، ص ١٨ .

(٢) رسائل الجاحظ : تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة، مكتبة الخانجى، لا.ت. رسالة فى الحنين إلى الأوطان، ٣٨٤/٢ .

(٣) ابن منظور: لسان العرب. تحقيق عبد الله على الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلى. القاهرة، دار المعارف، لا.ت، ٢٢٧/٤، مادة شعب.

(٤) أبو حيان: البحر المحيط . بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ٥٢٢/٩، والقرطبى: تفسير القرطبى. دار الريان للتراث، لا.ت، ١٣٩/٢٦، وأبو عبيدة معمر بن المثنى: مجاز القرآن. تحقيق د. محمد فؤاد سزكين. القاهرة، مكتبة الخانجى، ٢٢١/٢، وابن الجوزى: زاد المسير فى علم التفسير. بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٨٧م، ١٨٦/٧، وأبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. بيروت، دار إحياء التراث العربى، ١٩٩٠م، ١٢٣/٧، والبقاعى: نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور. تحقيق عبد الرزاق غالب المهدى. بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ٢٣٦/٧، والبيضاوى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تحقيق عبد القادر عرفات. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ٢١٩/٥، والألوسى: روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. بيروت، دار إحياء التراث العربى، ١٦٢/٢٦. والآية فى سورة الحجرات: آية ١٣.

(٥) البحر المحيط، ٥٢٢/٩ .

(٦) تفسير القرطبى، ٦١٦٤/٩ .

(٧) أحمد أمين: ضحى الإسلام. القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ط١٠، لا.ت، ٥٦/١ .

(٨) الجاحظ: البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، لا.ت، ١٢/٣ .

(٩) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، رسالة النابتة، ٢٠/٢ .

(١٠) الجاحظ: العثمانية. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيــروت، دار الجيــل، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٢١٧ – ٢١٨ .

(١١) المصدر السابق، ص٢٠٠-٢٢٠.

(١٢) البيان والتبيين، ٣/٥ – ٦.

(١٣) د. عبدالله التطاوى: مستويات الحوار فى فنون النثر العباسى. القاهرة، دار غريــب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥م، ص ٨٨.

(١٤) عبد القاهر الجرجانى: الرسالة الشافية فى وجوه الإعجاز. منشورة مع كتاب: دلائل الإعجاز. تحقيق محمود شاكر. القاهرة، الخانجى، ص ٥٧٦.

(١٥) د. سعيد حسين منصور: النثر العربى فى مراحل تطوره حتى نهاية القرن الثالــث الهجرى. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص٢١١.



الفصل الأول

مؤلفات الجاحظ

التى واجه فيها الشعوبية

وهذه الكتب والرسائل التى نُسِبت للجاحظ وتعرَّض فيهـا للشـعوبية يمكن أن نقسمها كالآتى:

أولاً : كتب ورسائل كان الجاحظ فيها صريح المواجهة مع الشعوبية.

ثانيًا : كتب ورسائل تعرض الجاحظ فيها للشعوبية عن طريق الرمز والإيحاء.

ثالثًا : كتب ورسائل للجاحظ أسئ فهمها وظـن بأنهـا تـدافع عـن الشعوبية؛ ولذا شُكِّكَ فى نسبتها للجاحظ.

رابعًا: كتب نُحِلت على الجاحظ لأسباب شعوبية.

وسنبدأ الآن بدراسة الكتب التى كان الجاحظ فيها صريح المواجهـة مع الشعوبية.

كتاب الشعوبية

أما عن الكتب التى كان الجاحظ فيها صريحًا فى مواجهته للشـعوبية فيأتى على رأسها كتاب "الشعوبية" الذى ذكره فى كتابه البخلاء بعد عرضـه لأبيات شعرية عُيِّر فيها بعض قبائل العرب بأكلهم مستقبح الطعـام بقولـه: "وهذا الباب يكثر ويطول، وفيما ذكرنا دليل على ما قصدنا إليه من تصـنيف الحالات: فإن أردته مجموعًا فاطلبـه فـى كتـاب الشـعوبية فإنـه هنـاك مستقصى"(١).

ويمكننا من خلال قراءة النماذج من الأخبار والأشعار التى عرضـها الجاحظ فى كتابه البخلاء عند ذكره كتاب الشعوبية أن نستدل أن هذا الكتـاب يتعرض بصورة خاصة لمطاعن الشعوبية على أطعمة العرب ومشاربهم من خلال شعر الهجاء الذى تلقفته الشعوبية، ورمت به كل أفـراد القبيلـة التـى هُجِىَ أحدها أو بعضها بأكل شئ من خبيث الطعام ومستقبحه.

على أننا لا نستبعد أن يكون الجاحظ فى هـذا الكتـاب قـد واجـه الشعوبية فى مطاعن أخرى أخذوها على العرب فى أساليب حياتهم وعاداتهم؛ لأن اسم الكتاب يوحى بأنه مواجهة عامة مع الشعوبية خلاف كتاب العصـا الذى ورد فى كتاب البيان والتبيين فهو مواجهة محدودة بمـا يـدور حـول العصا من مطاعن للشعوبية على العرب سواء فى خطابتهم التى يتنـاولون عندها العصا أم عند قتالهم بها.

ولسنا نستطيع الحكم فى بيان ذلك؛ لأن الكتاب قد فُقِد ولم يصـلنا أى خبر عنه سوى إشارة الجاحظ السابقة إليه فى كتاب البخلاء.

كتاب العرب والموالى

أيضًا من كتب الجاحظ التى نظن أنه تعرض فيها للصراع الشـعوبى العربى ولم تصل إلينا كتاب العرب والموالى، الذى ذكره الجاحظ فى كتـاب الحيوان معبرًا عن اعتراض المعترضين عليه بقوله: "وعبتنى بكتاب العـرب والموالى، وزعمت أنى بخست الموالى حقوقهم ، كما أنى أعطيت العرب مـا ليس لهم"(٢).

ومن خلال بعض النصوص القليلة التى نقلها صاحب العقد الفريد من هذا الكتاب يمكننا أن نستشف – إلى حد ما – أنه يعـرض بعـض مراحـل الصراع بين العرب والشعوبية، كمرحلة بنى أمية التى لاقى فيهـا المـوالى كثيرًا من الشدة والعنت من سياسة الأمويين، ويعطى الجاحظ أمثلة على ذلك بنقش الحجاج على أيدى الموالى الثائرين على الدولـة مـع ابـن الأشـعث وتفريقه لهم فى البلاد(٣).

كما يذكر الجاحظ فيه بعض الشعراء الموالى واتجاهـاتهم الشـعرية الجديدة، وابتكاراتهم، ذاكرًا أن ذلك مما يتباهى به الموالى علـى العـرب ،

ومن ذلك حديثه عن أبى نواس على أنه أحد الشعراء الموالى الكبار ، ومــن أفضل شعراء عصره [٤].

والكتاب – من خلال النظر فــى هــذه النصــوص التــى وصــلت إلينا منه – يبدو أنه لا يعرض لصور القهر التى لاقاها الموالى من الأمويين فحسب، بل يعرض أيضًا للأشخاص البارزين والنابغين فيهم كــأبى نــواس، ويعرض مظاهر نبوغهم.

ومن هنا فهذا الكتاب بهذا الشكل – ومن خلال تأمل ما وصلنا مــن نصوص منه – لعله كان محاولة من الجاحظ لرصد التيــار الشــعوبى فــى الموالى منذ عصر بنى أمية، وفى الدولة العباسية، وكــان رصــد الجــاحظ مصحوبًا برغبته فى إرضاء عامة النفوس: نفوس العرب ونفــوس المــوالى؛ ولذا ذكر مزايا الفريقين عسى أن يكون ذلك داعيــاً إلى إرضــاء الجميــع، وإيقاف نار الخصومة والتجنى خاصة من قبل الموالى .

وبسبب ذكر الجاحظ فى هذا الكتاب مزايا بعض الموالى ومــواهبهم كأبى نواس تجنى خصوم الجاحظ عليه، وغيروا عنوان هذا الكتاب بما يتفــق وميولهم العدائية نحو الجاحظ؛ فسموه بــ"فضل المــوالى علــى العــرب"[٥] وأخذوا يعدونه من سقطات الجاحظ، ومن هــؤلاء الخصــوم عبــد القــاهر البغدادى[٦] والإسفراييني[٧].

وقد فات البغدادى والإسفراييني أن من أساليب الجاحظ فى كتبــه أن يعرض حجج الخصوم بقوة وبأحسن أدلتهم، حتى إذا ما أغار عليها وهتكهــا سقطت قلاعهم ولم يبق لهم حجة يستندون إليها بعد ذلك.

كما فاتهما أن الجاحظ أراد بهذا الكتاب عقد صــلح بــين المــوالى والعرب بدلاً من ذلك الصراع المستعر بينهما ، فذكر لكل فريق مزاياه فــى هذا الكتاب .

كتاب العرب والعجم

أيضًا من كتب الجاحظ التى لم تصل إلينا – ونظن أنه من خلال التأمل فى النصوص التى وصلت إلينا منه أنه عرض فيه للصراع الشعوبى العربى – كتاب العرب والعجم، وهو غير كتابه العرب والموالى، ويوضح الجاحظ أن الكتابين مختلفان فى قوله: "وعبتنى بكتاب العرب والعجم، وزعمت أن القول فى فرق ما بين العرب والعجم، هو القول فى فرق ما بين الموالى والعرب. ونسبتنى إلى التكرار والترداد، وإلى التكثير، والجهل بما فى المعاد من الخطل وحمل الناس المؤن"(٨).

ويشير الجاحظ لكتابه العرب والعجم خلال كتابه فى الأوطان والبلدان بقوله: "وقلتم: خبرونا عن الخصال التى بانت بها قريش من جميع الناس. وأنا أعلم أنك لم ترد هذا، وإنما أردت الخصال التى بانت بها قريش من سائر العرب، كما ذكرنا فى الكتاب الأول الخصال التى بانت بها العرب على العجم..." (٩).

وواضح من خلال الفقرة السابقة التى تعرض فيها الجاحظ لهذا الكتاب أن مضمونه يتناول فضائل العرب التى لا يوجد عند العجم مثيل لها كامتيازهم فى الشعر والارتجال فى الخطابة، وما إلى ذلك من مواهب العرب وقدراتهم التى ذكرها الجاحظ عنهم فى مواضع مختلفة من كتبه(١٠).

ومن هنا فكتاب العرب والعجم فيما يبدو يختلف عن كتاب العرب والموالى فى أن الأول منهما يواجه الشعوبية بمزايا العرب ويوضح لهم قدراتهم التى يجهلونها أو يتناسونها ولا يعترفون بها أمام حضارتهم. وإذًا فهذا الكتاب أدخل فى منطقة الصراع الشعوبى العربى من الكتاب الآخر حول العرب والموالى الذى يترضَّى الجاحظ فيه الموالى ويحاول أن يوفق بينهم وبين العرب تهدأة للصراع الناشب بين الفريقين.

ومن أجل أن تتضح الصورة أكثر حول الفرق بين كتابى العرب والموالى، والعرب والعجم – فيما يمكننا الاجتهاد بشأنهما من خلال النظر للنصوص التى وصلت إلينا منهما – يحسن بنا أن نعرف المقصود بالموالى والمقصود بالعجم.

أما الموالى فهم " كل من أسلم من غير العرب، وذلك لأن هؤلاء إما أن يكون أصلهم أسرى حرب استرقوا ثم أعتقوا فصاروا موالى . وإما أن يكونوا من أهل البلاد المفتوحة، وهؤلاء كانوا حينما يسلمون ينضمون إلى العرب ويدخلون فى خدمتهم ويتحالفون معهم لكى يعتزوا بشوكتهم وقوتهم. وبذلك يصبحون موالى أيضًا بالحلف والموالاة"(١١).

وبعبارة أوجز فالمولى هو من أسلم من العجم وأصبح مندمجًا مع العرب بعلاقة الولاء، ومنهم من يحتفظ بحريته، ومنهم من شمله الرق.

أما العجم فهم الشعوب والأمم الأعجمية.

ومن هنا فلفظ العجم أشمل من لفظ الموالى، ولفظ الموالى أدل على العجم الذين امتزجوا بالعرب المسلمين بعد الفتوحات الإسلامية وأصبحوا معهم كيانًا واحدًا للأمة.

ومن هنا فليس بغريب أن نرى الجاحظ يربط بين الشعوبية والعجم فى كتاباته على أساس أنهم أمم وشعوب لم يحدث الاندماج والامتزاج بينهم وبين العرب المسلمين، على خلاف الموالى الذين يمتزجون فى المجتمع بإخوانهم العرب المسلمين؛ ولذا فالجاحظ تختلف نبرة اتهامه لهم بالشعوبية والتآمر على العرب والإسلام من موضع لآخر فى كتاباته، فهو يحاول أن يذكر مزاياهم وفضائلهم فى كتب كثيرة خصصها عن شعوب الأمة الإسلامية وأجناسها فى عصره كرسالته مناقب الترك وعامة جند الخلافة، وكتابه فخر السودان على البيضان، وفى كتب أخرى يحاول أن يوفق الصلة بينهم وبين العرب ككتابه الموالى والعرب ورسالة مناقب الترك وعامة جند الخلافة،

ولكنه فى كتب أخرى نجده يحاصرهم فيها ليكشف مؤامراتهم ضد دولة الإسلام، وذلك حين لا يجد فى الوسع صبرًا على أحقادهم ومؤامراتهم.

ولندلل على ذلك نذكر ذلك النص الذى يربط الجاحظ فيه بين الشعوبية والعجم فى حين يشير إلى أن الموالى ليسوا ببعيدين عن دائرة الشعوبية، يقول الجاحظ: "والحمية التى لا تبقى دينًا إلا أفسدته، ولا دنيا إلا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية، وما قد صار إليه الموالى من الفخر على العجم والعرب"(١٢).

كما يتضح لنا الفرق بين الموالى والعجم وصورة المخزون الشعوبى عند الموالى فى قول الجاحظ: "قد نجمت من الموالى ناجمة، ونبتت منهم نابتة، تزعم أن المولى بولاية قد صار عربيًا، لقول النبى ﷺ: "مولى القوم منهم"، ولقوله: "الولاء لحمة كلحمة النسب لا يباع ولا يوهب".

قال: فقد علمنا أن العجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا أشرف من العرب ، وأن الله لما حول ذلك إلى العرب صارت العرب أشرف منهم .

قالوا: فنحن معاشر الموالى بقديمنا في العجم أشرف من العرب، وبالحديث الذى صار لنا فى العرب أشرف من العجم . وللعرب القديم دون الحديث. ولنا خصلتان جميعًا وافرتان فينا، وصاحب الخصلتين أفضل من صاحب الخصلة"(١٣).

ولا يسع الجاحظ أمام هذا المنطق الشعوبى الذى يستعلى على العرب ومن سواهم إلا أن يقول لهؤلاء الموالى: "وأى شئ أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك وهو مقر أنه صار شريفًا بعتقك إياه"(١٤).

بقى أمر نحب أن نشير إليه بخصوص كتاب العرب والعجم للجاحظ، وهو أن ياقوتًا وابن النديم قد نسبا للجاحظ كتابًا بعنوان "التسوية بين العرب والعجم"(١٥)، ويُظَن أنه هو نفسه كتاب العرب والعجم(١٦) الذى ذكر الجاحظ اسمه فى مقدمة كتاب الحيوان(١٧).

ونظن أن لفظ التسوية دخيل على اسم الكتاب، وقد ألحق به من قبل الناسخين الذين ربطوا الصراع بين العرب والعجم بمصطلحى الشعوبية والتسوية، ومن هنا أجازوا لأنفسهم إدخال تلك اللفظة "التسوية"على اسمه[١٨].

ومن هنا فإننا نظن أن كتاب العرب والعجم – كما ذكرنا – بعيد عن منطقة التسوية التى لا يرفضها الجاحظ، بل يدعو إليها فى كتبه ورسائله، ولما كان لفظا الشعوبية والتسوية عند كثير من المؤرخين والباحثين – وبالطبع الجاحظ ليس منهم – مترادفين فقد سهل على الكثيرين وضع أحدهما مكان الآخر[١٩].

كتاب فخر السودان على البيضان

ومن هذه الكتب التى عرض فيها الجاحظ لأجناس الأمة كتاب فخر السودان على البيضان الذى نبه فيه لقدر طائفة السودان – يقصد بهم الزنج والأحباش على وجه الخصوص – واعتبر لها خطرها[٢٠].

على أن الجاحظ فى هذا الكتاب لم يكتف بأن يذكر مزايا السودان والحبش، وإنما ذكر أيضًا فيه المزاعم الشعوبية التى كانوا يطلقونها على العرب والمسلمين [٢١].

رسالة مناقب الترك وعامة جند الخلافة

كما تناول الجاحظ فى رسالته مناقب الترك وعامة جند الخلافة عناصر الجيش والأمة من عرب وفرس وموالٍ وبنويين وأتراك، وذكر فيه لكل طائفة مزاياها، وحرص ألا ينحرف قلمه إلى أن يتحول حديثه عن هذه الطوائف إلى ذكر المحاسن والعيوب، والطعن والرد، فيختفى الهدف الذى من أجله وضع الجاحظ الكتاب وهو التأليف بين عناصر الجيش والأمة [٢٢].

ومع ذلك فقد جاء فى هذه الرسالة ما يشير لمحاولة كل عنصر فى الجيش إبراز قدراته وخصاله وغمز غيره من العناصر؛ لأنها أقل منه فى

هذه القدرات والخصال؛ مما يعنى أن بالرسالة بعـــض الملامـــح الشـــعوبية خاصة حين يكون الهجوم واضحًا من بعض هذه العناصر على العرب.

كتاب أبناء السرارى والمهيرات

كما يبدو أن الجاحظ قد انشغل بالحديث عن الصراع الشعوبى العربى فى كتب أخرى لم تصلنا، ولكن يبدو من عناوينها وبعض النصوص التى وصلت منها اهتمامها بهذا الأمر ككتابه "أبناء السرارى والمهيرات" الذى يشير إليه الجاحظ خلال كتابه البيان والتبيين، حين حديثه عن بعض الموالى الذين عرفوا ببعض الألقاب الغريبة(٢٣).

ونعتقد أن ما نقله عبد الكريم النهشلى عن الجاحظ حول أبناء الإماء هو جزء من هذا الكتاب المفقود، والذى جاء فيه "قال الجاحظ: أئمة الشيعة من ولد الحسين الذين عندهم: أنتم تعلمون كثيرًا من مراشد الدين والدنيا، وعند الغلاة منهم أنهم يعلمون الغيب – أولاد إماء" (٢٤).

ويذكر الجاحظ أئمة الشيعة واحدًا بعد الآخر، ثم يقول فى هذا الكتاب: "ولم يكن فى بنى مروان أرجل من مروان بن محمد وأمه أمة. ولا أفضل من يزيد الناقص وأمه أمة وهى بوران دخت بنت فيروز بن يزدجرد.

ولذلك كان يرتجز فى حروبه ويقول :

أنا ابن كسرى وأبى خاقـــــــان وقيصر جدى وجدى مروان

وهذه ولادة ثالثة" (٢٥).

والواضح من النصوص التى قرأناها من هذا الكتاب أنه يشير لأبناء الإماء ممن آباؤهم عرب كيزيد الناقص ومروان بن محمد، كما أنه يقرب المسافة بين الموالى والعرب من خلال ذكر ذلك النسل الناتج من تزاوجهما.

كما يبدو أن الكتاب يتناول عرضًا لبعض نماذج من الموالى أصحاب الشأن فى الأمة كواصل بن عطاء[٢٦]، مما يعنى أنه يسير فى الاتجاه الذى يحاول إرضاء الموالى وبعث الروح الطيبة فى العلاقة بينهم وبين إخوانهم العرب .

كتاب الهجناء والصرحاء

كما يبدو لنا أن الجاحظ قد تعرض لجانب من الصراع الشعوبى العربى فى كتابه الهجناء والصرحاء الذى يشير إليه فى أكثر من موضع فى كتبه[٢٧] .

ويبدو من بعض النصوص القليلة التى ذكرها الجاحظ فى كتابه البرصان والعرجان، وأحال إلى أنها موجودة فى كتاب الهجناء والصرحاء، أن الجاحظ يتناول فيه ذكر بعض الموالى والعبيد فى مجتمعه ممن ذاع صيتهم، ويقابل ذلك بذكر بعض الصرحاء الذين ذاع صيتهم فى المجتمع أيضًا.

ومن الشخصيات التى تحدث الجاحظ عنها فى هذا الكتاب من الهجناء "ذو الركبة العوجاء" الذى يقول الجاحظ عنه: "ومن الحدب: ذو الركبة العوجاء الشاعر العبد، وهو الذى يقول :

سخر الغوانى أن رأين مويهنًا　　　كالذئب أطلس شاحب منهوك

وقد ذكرنا قصته فى كتاب: الهجناء والصرحاء"[٢٨].

كتاب مفاخرات قريش

كما أن كتاب الجاحظ "مفاخرات قريش"[٢٩] يبدو أنه يدخل ضمن الكتب التى عرض الجاحظ فيها شيئًا من أبعاد الصراع الشعوبى العربى، ويتضح ذلك من خلال هذا النص الذى نقله ابن أبى الحديد عنه، يقول ابن أبى الحديد: "وقال شيخنا أبو عثمان فى كتاب" مفاخرات قريش "لا خير فى

ذكر العيوب إلا من ضرورة ، ولا نجد كتاب مثالب قط إلا لدعى أو شعوبى، ولست واجده لصحيح النسب، ولا لقليل الحسد، وربما كانت حكاية الفحش أفحش من الفحش، ونقل الكذب أقبح من الكذب، وقد قال النبى ﷺ: "اعف عن ذى قبر"، وقال: "لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات".

وقيل فى المثل: "يكفيك من شر سماعه"، وقالوا: أسمعك من أبلغك، وقالوا: من طلب عيبًا وجده، وقال النابغة:

ولست بمستبق أخًا لا تلمه   على شعث أى الرجال المهذب"[٣٠].

ومن خلال هذا النص الذى عرضناه من كتاب الجاحظ "مفاخرات قريش" نقلاً عن كتاب شرح نهج البلاغة يتضح لنا أن الجاحظ مشغول فيه – أو فى جزء منه على الأقل – بجهاد الشعوبيين الذين يحلو لهم الطعن فى أنساب العرب، ويوضح الجاحظ فيه أن غواية الطعن فى النسب لا يقوم بها إلا شعوبى أو دعى، ويأتى بالأدلة والحجج من الحديث النبوى والشعر والخبر على فحش هذا العمل[٣١].

كتاب البيان والتبيين

أيضًا نجد الجاحظ تعرض لمواجهة الشعوبيين واتهاماتهم للعرب فى أساليب حياتهم وألوان معارفهم فى كتب يبدو من عناوينها أنها خُصصت لغير هذا الغرض، وإن كانت فى الواقع قد كتبت من أجل أغراض مختلفة منها مواجهة الشعوبية وإظهار الفضائل العربية.

ومن هذه الكتب كتاب البيان والتبيين الذى يبدو فى مجمله أنه عرض لأنواع الفنون القولية التى تفوق فيها العرب كالشعر والخطابة، مؤيدًا بالنماذج الكثيرة التى تؤكد هذا التفوق لهم[٣٢]، ويبدو هذا العرض كأنه دليل دامغ للرد على ما يرمى به الشعوبيون العرب من قلة شأن وإفلاس حضارى بين سائر الأمم.

كما أن الجاحظ انشغل فى جزء كبير منه بالصراع مع الشعوبية حول اتهاماتهم العرب فى أساليب حياتهم وعاداتهم وقتالهم ومواهبهم فى القول من شعر وخطابة خلال باب العصا من هذا الكتاب[٣٣].

كتاب البخلاء

وكتاب البخلاء للجاحظ هو أيضًا يدل على أن أحد أهداف الجاحظ الكبرى من تأليفه هو الدفاع عن فضيلة الكرم التى اتصف بها العرب، وحاول الفرس الشعوبيون هتكها بكل وسيلة كجمعهم وتشهيرهم بشعر الهجاء الذى يصف أحد العرب – أو بعضهم – بالبخل فعمموه على الجميع، وكإعلائهم من قيمة البخل والحرص التى يتصف بها الفرس على قيمة الكرم التى قرنوها بالإسراف والسفه.

ولذلك جاءنا كتاب البخلاء حافلاً بعرض نماذج من بخلاء الفرس كسهل بن هارون وبخلاء مرو[٣٤].

كما أنه مما يؤكد أن الجاحظ كان فى هذا الكتاب منتبهًا لكونه مواجهة من مواجهاته مع الشعوبية – ختام الجاحظ للكتاب بحديثه عن أطعمة العرب، ووصفه لها، ونفى اتهامات الشعوبيين حول ما أثاروه عنها[٣٥].

ويؤكد كثير من الباحثين على أن هدفًا كبيرًا من أهداف الجاحظ فى هذا الكتاب هو الرد على الشعوبية فى مطاعنهم ومزاعمهم على العرب، ومن هؤلاء الدكتور عبد العزيز الدورى الذى يقول: "إن مطالعتك لكتاب البخلاء تنقلك من السخرية إلى الجد، ومن إنكار البخل إلى تحليل شبه فلسفى يبين لك أن البخل طبع متأصل فى نفوس الشعوبيين وبذلك يقدم دفاعًا قويًّا عن الكرم"[٣٦] الموصوف به العرب.

على أنه لا يجب أن نغفل أن الجاحظ لم يكن هدفه فى كتاب البخلاء مجرد مواجهة الشعوبية وهتك بعض حصونها، وإنما كان يقصد أيضًا إلى أهداف أخرى لعل أهمها هو عرض ألوان من الفن القصصي والحواري فى موضوع البخل؛ ولذا فقد ذكر فى كتاب البخلاء لهذا السبب بعض بخلاء من العرب كالأصمعي[٣٧].

كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان

كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان، ألفه الجاحظ من أجل عرض رجال العرب الذين عُرِفوا من خلال الشعر والأخبار باتصافهم ببعض العاهات والأمراض. وقد راق للشعوبيين أن ينظروا لهؤلاء الرجال الأعلام من خلال أمراضهم وعاهاتهم، وعدوا اتصاف كبار أعلام العرب بهذه الأمراض والعاهات طعنًا فى العرب.

والجاحظ – فى هذا الكتاب – يريد أن يصحح الصورة، فيذكر أنه لم يؤلف كتابه انسياقًا وراء الدعوات الشعوبية التى تعبث برجال العرب وقيمهم، وإنما ألفه لكي يذكر المواهب والقدرات التى اتصف بها هؤلاء الرجال من العرب.

فعند حديث الجاحظ عن برصان العرب يقول: "وهذا العدد من البرصان إنما وجدتموه فى جميع جزيرة العرب منذ كانت العرب إلى يومنا هذا، فهذا المقدار قليل، ولو قصدتم إلى أمة من الأمم يكون عدد جماعتهم على الشطر من عدد جماجم العرب لوجدتم عدد برصانهم على الضعف من عدد برصان العرب. ولولا طعن الحاسد لهم والباغى عليهم لكنت عسى ألا أتحمل لك نسخ هذا الكتاب مع ثقله عليّ وبالله التوفيق"[٣٨].

ولعل سبب ثقل الكتاب على الجاحظ أنه لا يحب أن يذكر عن أعلام العرب أى شئ فيه تعريض بهم كالمرض والعاهة، وكذلك يأتى ثقل هذا الكتاب عليه؛ لأنه توجد شعرة دقيقة بين منحى المدافعين عن العرب فى عرض مضمون هذا الكتاب – كالجاحظ – والمهاجمين لهم كالهيثم بن عَدِيّ[٣٩]، ويخشى الجاحظ أن يتجاوز هذه الشعرة فى أي موقف من المواقف حين حديثه عن شخصيات العرب المصابين بالأمراض والعاهات.

ويوضح الجاحظ فى هذا الكتاب أن سبب تنطُّع الهيثم بن عدى ومن على شاكلته ممن أكثروا فى عرض أعلام العرب ذوى الأمراض والعاهات هو شعر الهجاء الذى يهجو العرب فيه بعضهم البعض، يقول الجاحظ: "ولكن العرب تتباهى بالأشعار المستخشنة التى تستدعى الرواية والحكاية، والرواة لا تعنى بلسان الزط وسكان الآجام، لهوانهم عليهم، ولأنهم لم يتعاييوا بينهم بالكلام الذى يحفظ الرواة مثله. ولو جمعتهم أيضًا كلهم لم يكونوا كقبيلة من قبائل بنى سعد"[٤٠].

كما يشير الجاحظ فى هذا الكتاب إلى أن العربى حين يُبْتَلى بالمرض والعاهة لا يقر بالعيب فيهما، وإنما ينبه السامعين إلى المزايا فيهما، وهذا من ذكائه، يقول الجاحظ: "وإذا كان الأعرابي يعتريه البرص فيجعله زيادة فى الجمال، ودليلاً على المجد، فما ظنك بقوله فى العرج والعمى، وهما لا يستقزران ولا يتقزز منهما ولا يعديان ولا يظن ذلك بهما، ولا ينقصان من تدبير، ولا يمنعان من سؤدد"[٤١]، كما يقول: "ولأن الأعرابي حين ابتلى بالدمامة والقلة، ثقل عليه أن يقر بالذلة والضعف، فاحتج لذلك وأحال الناس على معنى لا يدركونه بالمشاهدة وهذا من ذكائه ودهائه.

فبهذه النفوس – حفظك الله – حفظوا أنسابهم، وتذاكروا مآثرهم، وقيدوا لأنفسهم بالأشعار مناقبهم، وحاربوا أعداءهم وطالبوا بطوائلهم، ورأوا للشرف حقًّا لم يره سواهم، وعملوا على أن الناس كلهم دونهم"[٤٢].

وها نحن نرى الجاحظ يشارك الأعرابى ذكاءه – فى هذا الكتاب – فى تحويله لاتهامات الشعوبية على العرب إلى مواطن فخار وإعجاب، وشهادات على امتياز العرب وتفوقهم، فى جمعه فى هذا الكتاب لكثير من الشخصيات العربية التى عرفت بمواهبها فى الشعر والخطابة أو الحكمة والسيادة، وفى الوقت نفسه كانت مصابة ببعض الأمراض أو العاهات.

الكتب والرسائل التى تعرض فيها الجاحظ للشعوبية عن طريق الرمز والإيحاء

أما الكتب والرسائل التى ألفها الجاحظ وأشار فيها من طرف خفى للصراع الشعوبى العربى، فمنها كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب، ورسالة الجواري والغلمان، وكتاب تفضيل البطن على الظهر، ورسالة فى مدح التجارة وذم عمل السلطان.

وقد يتساءل البعض لم لجأ الجاحظ للرمز وهو فى سبيل جدله للشعوبية وكشفه ادعاءاتها ؟

والرد على هذا السؤال يكون من خلال النقطتين التاليتين:

أولاً : أراد الجاحظ أن يستخدم حيوانات العرب ونباتاتهم كرموز لإعلاء شأن العرب فى مقابلة ما رُمِزَ به للعجم من حيوانات ونباتات – تفاخروا بها وأعلوا من شأنها – وفى ذلك رد على كيد الشعوبية الرمزي بكيد شبيه به، ويعلو عليه بقوة الحجة وصدق الهدف.

ثانيًا : أراد الجاحظ أن ينوع فى طرق جدله للشعوبية، فهو يستخدم فى مواجهتهم أحيانًا التصريح، وفى أحيان أخرى يستخدم التلميح والكناية التى قد تكون – كما يقول –أبلغ من تصريح[٤٣].

وهذا التنوع من شأنه أن يجذب القارئ لما فيه من ألوان مختلفة .

كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب

كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب لم يصل إلينا، ولكن الجاحظ يشير إليه خلال رسالة فى الجد والهزل إلى محمد بن عبد الملك الزيات(٤٤)، كما يذكر ياقوت الحموي أن الجاحظ قد ألفه وأهداه لإبراهيم بن العباس الصولي(٤٥).

وقد رمز الجاحظ فى هذا الكتاب للعرب بالنخيل التى تنتشر فى صحرائهم وبلادهم ، ورمز للشعوبية بالزرع الذى ينمو فى قراهم .

وقد التفت إلى ما وراء تأليف هذا الكتاب من رموز تتصل بالصراع الشعوبى العربي الدكتور شوقي ضيف(٤٦)، والدكتور محمد عمارة الذي يقول: إن الجاحظ: "يكشف ساخرًا، عن مدى الغلو الذي بلغته الشعوبية فى عدائها لكل ماله صلة بالعرب، حتى لقد سفهت من نمط معيشتهم والأدوات التى يستعملونها فى حياتهم، والنباتات التى تطبق أرضهم وتحسن صحراؤهم زراعتها! وجعلت من هذه الأشياء رموزًا قومية صيرتها أهدافًا فى الصراع"(٤٧)، كالنخيل(٤٨).

وتتضح صورة الرمز للصراع الشعوبي العربي فى هذا الكتاب بالنظر إلى ما يفهم من قول الجاحظ فى عقد الناس المناظرات بين الزرع والنخل، وتفضيل بعض الناس الزرع على النخل وتفضيل البعض الآخر النخل على الزرع.

يقول الجاحظ: "ومتى صار اختيار النخل على الزرع يحقد الإخوان، ومتى صار تفضيل الحب وتقريظ الثمر يورث الهجران، ومتى تميزوا هذا التميز وتهالكوا هذا التهالك؟ ومتى صار تقديم النخلة ملة، وتفضيل السنبلة نحلة؟ ومتى صار الحكم للنعجة نسبًا وللكرمة صهرًا، ومتى تكون فيها ديانة وتستحكم فيها بصيرة، ويحدث عنها حمية"(٤٩).

على أن الصراع بين العرب والشعوبية لم يتوقف على التعصب للنباتات التى كانت تنبت فى بلاد كل منهما، وإنما شمل أيضًا الحيوانات – كما سوف نذكر فيما بعد –.

رسالة مفاخرة الجواري والغلمان

ومن رسائل الجاحظ التى استخدم فيها الرمز لتصوير الصراع الشعوبي العربي رسالة "مفاخرة الجواري والغلمان".

وقد رمز الجاحظ بالجواري إلى العرب؛ لأنهم لم يعرفوا فى جاهليتهم سوى التغزل بالمرأة والميل إليها، ورمز بالغلمان إلى الفرس الذين عرفوا الجنسية المثلية والميل للواط فى حضارتهم الساسانية(٥٠).

ويبدو الحس الشعوبي واضحًا فى هذه الرسالة حين يهاجم صاحب الغلمان شعراء العرب الجاهليين والأمويين الذين اعتادوا التغزل بالجواري دون الغلمان، وحين تهكمه من عادات العرب فى أكلهم القنافذ والضباب، يقول الجاحظ فى هذه الرسالة: "قال صاحب الغلمان: لو نظر كُثَيِّر وجميل وعروة، ومن سميت من نظرائهم إلى بعض خدم أهل عصرنا وممن قد اشترى بالمال العظيم فراهة وشطاطًا ونقاء لون، وحسن اعتدال، وجودة قد وقوام، لنبذوا بثينة وعزة وعفراء من حالق، وتركوهن بمزجر الكلاب. ولكنك احتججت علينا بأعراب أجلاف جفاة، غذوا بالبؤس والشقاء ونشئوا فيه، لا يعرفون من رفاغة العيش ولذات الدنيا شيئًا، إنما يسكنون القفار، وينفرون من الناس كنفور الوحش، ويقتاتون القنافذ والضباب، وينقُفُون الحنظل، وإذا بلغ أحدهم جهده بكى على الدمنة ونعت المرأة، وشبهها بالبقرة والظبية، والمرأة أحسن منهما: نعم حتى يشبهها بالحية ويسميها شوهاء وجرباء مخافة العين عليها بزعمه.

فأما الأدباء الظرفاء فقد قالوا فى الغلمان فأحسنوا، ووصفوهم فأجادوا وقدموهم على الجواري، فى الجد منهم والهزل"[٥١].

ويمكننا أن نفهم أن هذا النص يكشف أن شعراء الموالى ذوى الاتجاهات الشعوبية الواضحة كأبى نواس قد أدخلوا فى المجتمع بدعوى التجديد فى الأدب والشعر ألوانًا من المجون كالغزل بالمذكر لم يعرفها العرب فى جاهليتهم، وليتها لم تُعرف لما نشرته من انحلال فى بعض جوانب المجتمع.

كما لا يخفى أيضًا فى هذا النص هجوم الشعوبية ممثلة فى صاحب الغلمان على أساليب العرب فى تسميتهم أبناءهم، وهجومها على العرب أيضًا فى الحيوانات التى ترافقهم فى بيئتهم الصحراوية، وكذلك هجومها على أطعمة العرب.

كتاب تفضيل البطن على الظهر

كما نظن أن كتاب الجاحظ تفضيل البطن على الظهر فيه رمز للصراع الشعوبى العربى؛ فمفضلو الظهر هم الفرس، فقد ظهر اللواط فى دولتهم الفارسية بين عدد منهم ، وقد أشرنا إلى أن الجاحظ قد ذكر أن العرب قد عرفوه عن طريق الفرس.

أما مفضلو البطون فهم المائلون للجوارى والنساء، وهذه طبيعة العرب والطبيعة التى فطر الله عليها الإنسان، وقد انتصر الجاحظ فى هذا الكتاب للبطون على الظهور[٥٢].

ويعيب الجاحظ على مفضل الظهور أنه يذهب إلى ما يخالف أوامر الله عز وجل والفطرة التى خلق عليها الناس، ويخاطبه بقوله: "وقد رأيت منك أيها الرجل إفراطك فى وصف فضيلة الظهور، وفى محل الريبة وقعت،

لأنا روينا عن عمر أنه قال: من أظهر لنا خيرًا ظننا به خيرًا، ومن أظهر لنا شرًّا ظننا به شرًّا"[٥٣].

رسالة مدح التجارة وذم عمل السلطان

كما نظن أن رسالة الجاحظ مدح التجارة وذم السلطان قد كتبها ليدافع عن صناعة العرب، وهى التجارة فى مقابل الأرستقراطية الفارسية فى نظام الحكم[٥٤]؛ ولذلك يكثر الجاحظ فى هذه الرسالة من الحديث عن قريش التى اشتهرت بالتجارة منذ العصر الجاهلى، ويربط مدحه التجارة من خلال ذكره اشتقاق لفظ قريش من التجارة؛ يقول الجاحظ: "وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه، وصفيه من عباده، والمؤتمن على وحيه، من أهل بيت التجارة، وهى معوَّلهم وعليها معتمدهم، وهى صناعة سلفهم، وسيرة خَلَفهم.

ولقد بلغتك بسالتهم، ووصفت لك جلادتهم، ونعتت لك أحلامهم، وتقرر لك سخاؤهم وضيافتهم، وبذلهم ومواساتهم. وبالتجارة كانوا يعرفون. ولذلك قالت كاهنة اليمن: "ولله در الديار لقريش التجار".

وليس قولهم: قرشي لقولهم: هاشميّ، وزهري وتيمي؛ لأنه لم يكن لهم أب يسمى قريشًا فينتسبون إليه، ولكنه اسم اشتق لهم من التجارة والتقريش، فهو أفخم أسمائهم وأشرف أنسابهم، وهو الاسم الذى نَوَّهَ الله تعالى به فى كتابه، وخصهم به فى محكم وحيه وتنزيله، فجعله قرآنًا عربيًّا يتلى فى المساجد، ويكتب فى المصاحف، ويُجهر به فى الفرائض، وحُظوة على الحبيب والخالص"[٥٥].

كتاب الحيوان

وكتاب الحيوان – وما فيه من مناظرات بين الحيوانات كمناظرة صاحب الديك وصاحب الكلب، ومناظرة صاحب الضأن وصاحب المعز، والفيل والبعير – كتبه الجاحظ من أجل أهداف كثيرة؛ كعرض ما توفّر لديه

وما استنتجه ووصل إليه من معلومات علميه وأدبية وفلسفية ودينية تتعلق بالحيوانات، كما أن من أهم أغراضه فى هذا الكتاب وما فيه من مناظرات حول الحيوان إثبات قدرة الله فى خلقه، وأنه لم يخلق شيئًا عبثًا[٥٦].

يقول الدكتور سعيد منصور: ومن خلال التنوع العظيم والغنى فى المملكة الحيوانية فإن الجاحظ قد اختار الصور التى من خلالها يستطيع أن يظهر ويكشف عن الخلق العجيب فى الحيوانات وقدراتها الحسية. وبهذه الطريقة الفريدة استطاع أن يُنَمِّى مفهومه لله. وليس حجم الحيوان أو عدده أو وزنه الثقيل هو الذى يهم الجاحظ فى تأمله للحيوان، ولكنه ينظر للحيوان من أجل الدليل الواضح والقوى الذى يساعد على الاعتقاد فى التوحيد وتنزيه الله عز وجل[٥٧].

كما يؤكد الدكتور سعيد منصور على ما وراء المناظرات حول الحيوان من ارتباط بالتوحيد الإلهى ونظرة الجاحظ إلى الوجود فى قوله: "ينبغى علينا أن نفسر ما وراء هذه المناظرات من غايات تتمثل فى صلتها بالخيط الذى يجرى عبر كتاب الحيوان، ذلك أن الفهم السليم لفكر الجاحظ ومنهجه إنما يثبت أن هذه المناظرات لم تكن بعيدة الصلة عن النقطة الجوهرية فى كتاب الحيوان. ولكنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بنظرته الشاملة فيه إلى الوجود"[٥٨].

كما يؤكد أن مناظرة صاحب الديك وصاحب الكلب – على وجه الخصوص – ذات مضامين دينية وفلسفية فى قوله: "وإننا نرى أن المناظرة حول الديك والكلب والمناظرات الشبيهة بها حول الحيوان تقع فى صميم الجدل حول عقيدة التوحيد، كما أن لهذه المناظرات هدفًا دينيًّا ومضمونًا فلسفيًّا"[٥٩].

كما أن وراء تأليف الجاحظ كتاب الحيوان وعرضه المناظرات بين الحيوانات – هدفًا سياسيًّا يتمثل فى مواجهة الشعوبية [٦٠].

فالشعوبية تحتقر الحيوانات التى تتعلق ببيئة الصحراء العربية كالضب والكلب، وتمدح ما يرتبط ببيئاتها الأعجمية كالفيل والديك.

ويدافع الجاحظ عن العرب من خلال دفاعه عن الحيوانات التى ترتبط بهم كالكلب والضب والبعير.

كما يهاجم الشعوبية من خلال هجومه على الحيوانات التى ترتبط بهم، كالديك والفيل، وظهر هذا بجلاء فى المناظرات التى عقدها بين الحيوانات فى كتابه الحيوان، ومن ذلك مناظرة صاحب الديك وصاحب الكلب.

ويكشف الجاحظ الاتجاه الشعوبى لصاحب الديك عند ذكره هجوم صاحب الديك على العرب وأمثالهم ولغتهم خلال عرضه المثل "أسمح من لافظة"، ومحاولة صاحب الديك تفسير المثل مع ما يعلى من شأن حيوانه ويقلّل من شأن حيوان منافسه.

يقول صاحب الديك: "المثل إنما يلفظ به رجل من الأعراب، وليس الأعرابى بقدوة إلا فى الجر والنصب والرفع وفى الأسماء، وأما غير ذلك فقد يخطئ فيه ويصيب"[٦١] .

ويرد صاحب الكلب على صاحب الديك مدافعًا عن العرب فى ضرورة احترام عادات العرب ولغتهم وأمثالهم فى قوله:"وإنما أنكرنا موضع المثل الذى صرفتموه إلى حجتكم، وتركتم الذين ما زال الناس يقلدونهم فى الشاهد والمثل. وإن جاز لكم أن تردوا عليهم هذا المثل جاز لكل من كره مثلاً أو شاهدًا أن يرد عليهم كما رددتم؛ وفى ذلك فساد أمر العرب كله"[٦٢] .

كما يكشف الجاحظ فى كتاب الحيوان عن هجوم بعض الفرس ذوى الميول الشعوبية كالبرامكة على حيوانات العرب، كعرضه لذم الفضل بن يحيى البرمكى للضب أمام أحد الأعراب[٦٣].

كما يذكر هجوم سلمويه وابن ماسويه على البعير، ويكشف الجاحظ ما وراء هذا الهجوم من عداوة وحقد على العرب وعلى كل ما يتعلق بهم، يقول الجاحظ: "وزعم لى سلمويه وابن ماسويه متطببا الخلفاء، أنه ليس على الأرض جيفة أنتن نتنًا ولا أثقب ثقوبًا من جيفة بعير، فظننت أن الذى وهمهما ذلك عصبيتهما عليه، وبغضهما لأربابه، ولأن النبى ﷺ وعلى آله، هو المذكور فى الكتب براكب البعير"(٦٤).

ولا يخفى أن الجاحظ قد ربط هنا بين منحى الشعوبيين فى كراهية العرب وكراهية كل ما يخصّ بيئتهم ويتعلق بهم بكراهيتهم للإسلام؛ مما يعنى أن الشعوبية – فى الغالب – كانت وجهًا من عملة وجهها الآخر هو الزندقة.

كتب الجاحظ ورسائله التى أسئ فهمها وظن أنها ذات ميول شعوبية

رسالة فى الحنين إلى الأوطان

أما عن الرسائل والكتب التى أسئ فهم عنوانها أو مضمونها، وظن بعض الباحثين أنها مدسوسة على الجاحظ، فمنها رسالة الجاحظ فى الحنين إلى الأوطان.

فقد ظن الدكتور على أبو ملحم أن هذه الرسالة منحولة على الجاحظ؛ لأن فيها رواية للجاحظ مع أحد العبيد، ويَفْهم منها أن هذا العبد يهاجم العرب، وأن الجاحظ لا يرد عليه على غير عادته فى الرد على الشعوبيين، يقول الدكتور على أبو ملحم: "فى الرسالة شعوبية، والجاحظ كان خصمًا عنيدًا للشعوبية. وهذه النعرة تبدو من قول منسوب إلى أعرابى موجه للجاحظ ظاهر الاضطراب والتناقض"(٦٥).

أما عن هذه الرواية فالحقيقة أنهـا علـى عكـس ذلـك؛ لأن فيهـا مدحًا للعرب.

فقد جاء فى رسالة فى الحنين إلى الأوطان: "وقال أبو عثمان: رأيت عبدًا أسود حبشيًّا لبنى أسيد قدم من شق اليمامة فصار ناظورًا، وكان وحشيًّا مجنونًا لطول الغربة مع الإبل وكان لا يلقى إلا الأكـرة، فـلا يفهـم عـنهم ولا يستطيع إفهامهم، فلما رآنى سكن إلىّ وسمعته يقول: لعن الله أرضًا ليس بها عرب، قاتل الله الشاعر حيث يقول:

حر الثرى مستعرب التُّراب

أبا عثمان، إن هذه العُرَيْب فى جميع الناس كمقدار القرحة فى جلـد الفرس، فلولا أن الله رق عليهم فجعلهم فى حشاة لطمست هذه العجم آثارهم. أترى الأعيار إذا رأت العتاق لا ترى لها فضلاً! والله ما أمـر الله نبيـه ﷺ بقتلهم، إذ لا يدينون بدين، إلا لضنه بهم، ولا تـرك قبـول الجزيـة مـنهم إلا تنزيهًا لهم"(٦٦).

والذى نفهمه من هذا النص أن هذا العبد قد أنس للجاحظ لما رآه من فصاحته وبلاغته التى واتته من كثرة اختلاطه بالأعراب فى المربد وأخذه اللغة عنهم شفاهة.

وخلال حديث هذا العبد مع الجاحظ يمدح العرب، ويلعن كل أرض لا يوجد فيها عرب، وذلك لمعاناته فى التعامل مع الأكرة الذين لا يتقنون العربية ويسيئون فهمها.

كما أن هذا العبد يمدح العرب بأن الله قد عزلهم عن سائر الناس فى صحرائهم بالجزيرة العربية فلم يختلطوا بغيرهم؛ ولذا سلمت لغتهم وبقيت أصولهم بلا شوائب.

كما أن هذا العبد يرى أن مما خص الله به العرب – الذين كانوا وثنيين فى الجاهلية – دون سائر الناس أن ضن بهم على الكفر، فلم يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف.

على أنه مما يؤكد صحة نسبة رسالة الحنين إلى الأوطان للجاحظ، وينفى زعم الدكتور على أبو ملحم حول هذه الرسالة والرواية التى علق عليها منها – أن هذه الرواية بعينها قد ذكرها الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين[٦٧].

كتاب فضل الفَرَس على الهِمْلاج

قال الدكتور مصطفى الشكعة: إن الجاحظ فيه مسحة شعوبية، وذلك لكتابته كتابًا بعنوان فضل الفُرْس[٦٨].

وقد ذكر الدكتور الشكعة أن الجاحظ قد ألف كتابًا فى فضل الفرس اعتمادًا على ما جاء فى معجم الأدباء من عرض مؤلفات الجاحظ ، فقد ذكر منها كتاب فضل الفرس، وكتاب على الهملاج[٦٩].

ومن الواضح أن ياقوتًا الحموي قد وقع فى تحريف عند ذكره أن للجاحظ مؤلفين أحدهما "فضل الفرس" والآخر "على الهملاج"، والصواب والمنطقى – فى الوقت نفسه – أن يكون الكتابان اللذان أشار إليهما ياقوت كتابًا واحدًا يكون عنوانه كالتالى " كتاب فضل الفَرَس على الهملاج"[٧٠].

فالجاحظ يقارن فى هذا الكتاب بين الفَرَس العربي الأصيل وبين الهملاج، وهو الحصان غير العربي.

ولم يصل إلينا هذا الكتاب، ولكن لا يخفى من عنوانه هذا الذى افترضناه أن يكون موازنة بين الشعوبية والعرب، وطريقًا فى مواجهة الشعوبية بتفضيل الفرس العربي على الهملاج الأعجمي .

ومن ثم فنظن أن هذا الكتاب يمثل إحدى الجولات التى صارع فيها الجاحظ الشعوبية، وخطوة فى قهر المعسكر الشعوبى؛ وبهذا فإن كلام الدكتور الشكعة حوله يعد حكمًا على الأمر بنقيض ما فيه وما يدل عليه .

كتب نُحِلَتْ للجاحظ لأسباب شعوبية

كتاب المحاسن والأضداد

أما عن الكتب التى لم تصح نسبتها للجاحظ فمنها كتاب المحاسن والأضداد[٧١] وكتاب التاج. وكان من الأسباب التى دفعت هذه الصحة عنها ما فيها من ميل لمدح الشعوبية والشعوبيين على خلاف ما عُرِف عن الجاحظ.

أما عن كتاب المحاسن والأضداد فقد ذكر الدكتور شوقى ضيف أن مؤلفه الحقيقى – فى أغلب الظن – هو نفسه مؤلف كتاب المحاسن والمساوئ – أى البيهقى –، وأن كتاب المحاسن والأضداد كان مُسَوَّدة لكتاب المحاسن والمساوئ .

ولم ينسب البيهقى الكتاب الأول لنفسه لما فيه من أفكار شعوبية والفحش فى قصصه[٧٢]، ولكنه عندما ألف كتاب المحاسن والمساوئ حذف ما فيه من فحش وأفكار شعوبية حتى يسيغه الناس ولا يتعرض للهجوم، من قبل خصوم الشعوبية[٧٣].

وتتمثل الجوانب الشعوبية فى كتاب المحاسن والأضداد فى إعلاء مؤلفه الفرس على العرب فى بعض الصفات الأخلاقية كإعلائه "ضيافة الفرس وكرمهم على ضيافة العرب وما عرف عنهم من خصلة الكرم والجود" [٧٤].

ومن الغريب أن نرى الدكتور محمد نبيه حجاب مقتنعًا بصحة نسبة هذا الكتاب للجاحظ، ويرفض تشكيك البعض فى صحة نسبته إليه مدللاً على

هذه الصحة بما فيه من "إشادة بالعرب وتفضيل لهم على العجم وهــذا هــو ميدان الجاحظ كما نعلم"(٧٥).

على أن هذه الإشادة وهذا التفضيل للعرب فى هــذا الكتـــاب غيــر موجودين، وأما الموجود فى هذا الكتاب فهو – كما ذكرنا – تفضيل الفــرس على العرب انسجامًا مع الخط الشعوبى الذى يسير عليه منهج الكتاب.

كتــاب التـــاج

يعرض كتاب التاج للنظم الفارسية فى علاقة الملوك بخاصة النـــاس وعامتهم، والنظام الطبقى الذى كان سائدًا عند الفرس خلال الدولة الساسانية، ويهتم بصورة كبيرة باستعراض حياة ملوك الفرس وإظهار فضائلهم.

والأمر الخطير فى هذا الكتاب والذى يؤكــد كونـــه منحـــولاً علـــى الجاحظ – مع أسباب أخرى عديدة لا يتسع هنا المجال لتوضـــيحها– (٧٦) أن صاحب كتاب التاج له ميول شعوبية فارسية واضحة، فهو ينقل نظم الفــرس فى علاقة الحاكم بالرعية والنظام الطبقى الفارســـى، ويطلـــب مـــن خلفـــاء المسلمين وعامة الأمة الإسلامية أن يلتزموا ذلك النهج، ويـــرى أن الفـــرس خير قدوة للمسلمين فى كل أساليب حياتهم، فكـــأن الأمـــة الإســـلامية بـــذلك لا حياة لها إلا بهذه القوانين الفارسية، وإذن فيجب على المسلمين أن يطأطئوا لهذه الحضارة أعناقهم ويقبلوها كلها وهم مغمضو العيون(٧٧).

وأغلب الظن أن كتاب التاج قد ألفه أحد الشعوبيين ونســـبه للجـــاحظ نصير العروبة الأكبر فى عصره بكتاباته العديدة فى الدفاع عنهم، فقـــد رأى هذا الشعوبى أن أفضل ما يكيد به للجاحظ والعرب أن يلصق به كتابًا يعلـــى من شأن حضارة الفرس، ويجعلهم القدوة والإمام للعرب(٧٨).

- هوامش الفصل الأول -

(١) الجاحظ: البخلاء. تحقيق د. طه الحاجرى. القاهرة، دار المعارف، ط٩، ١٩٩٠م، ص٢٣٧.

(٢) الجاحظ: الحيوان. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الفكر، ودار الجيل، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ٥/١ .

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد. تحقيق أحمد أمين وآخرين. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ٤١٦/٣- ٤١٧ .

(٤) المصدر السابق، ٧٧/٦.

(٥) د. وديعة طه النجم: الجاحظ والحاضرة العباسية، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٦٥م، ص ١٨.

(٦) عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق. حققه محمد محيى الدين عبد الحميد. مكتبة دار التراث، ص ١٨٩، والملل والنحل لعبد القاهر البغدادى. حققه د. ألبير نصرى نادر. بيروت، دار المشرق، لا.ت، ص ١٢٥.

(٧) الإسفراييني: التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية من الفرق الهالكين. عنى بعرضه وخرج أحاديثه وعلق حواشيه محمد زاهد بن الحسن الكوثرى. وعنى بنشره وراجع أصله ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسينى. القاهرة، مطبعة الأنوار، ط١، ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م، ص٥٠.

(٨) الحيوان، ٥/١.

(٩) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. من كتابه فى الأوطان والبلدان، ١١٤/٤.

(١٠) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة مناقب الترك، ٦٩/١ – ٧٠ .

(١١) محمد الطيب النجار: الموالى فى العصر الأموى. دار النيل للطباعة، ط١، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م، ص١٤، وانظر أيضًا: مونتغمرى وات: الفكر السياسى فى الإسلام والمفاهيم الأساسية. ترجمة صبحى حديدى. بيروت، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، لا.ت، ص١٠٩.

(١٢) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة النابتة، ٢٠/٢.

(١٣) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة النابتة، ٢١/٢ .

(١٤) المصدر السابق، ٢٢/٢ .

كما يعرض الجاحظ لهذه التبجحات والمفاخرات الشعوبية للموالى فى: رسائل الجاحظ. رسالة مناقب الترك، ٢٣/١، على أنه هناك لا يتوسع فى نقدهم وكشف ادعاءاتهم؛ لأن غرضه فى هذه الرسالة كان إيجاد روح الوفاق بينهم وبين غيرهم من العناصر التى يتكون منها الجيش والأمة .

(١٥) ياقوت الحموى: معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب. تحقيق د. إحسان عباس. بيروت، دار الغرب الإسلامى، ط١، ١٩٩٣م، ٢١١٩/٥، و ابن النديم: الفهرست. تحقيق رضا تجدّد. بيروت، دار المسيرة، ط٣، ١٩٨٨م، ص٢١١ .

(١٦) د. طه الحاجرى: الجاحظ حياته وآثاره. القاهرة، دار المعارف، لا.ت، ص٢٣٣ ٠

(١٧) الحيوان، ٥/١ .

(١٨) وممن وقع فى غموض اسم هذا الكتاب : " التسوية بين العرب والعجم " د . مصطفى الشكعة الذى قال عن الجاحظ من أجله : إنه ذو ميول شعوبية " انظر كتابه : مناهج التأليف عند العلماء العرب قسم الأدب. بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٢م، ص ١٦٩– ١٧٠، وقد أبطلنا قوله بتصحيح اسم الكتاب.

(١٩) فى المصادر والمراجع الآتية نجد من سوى بين لفظى الشعوبية والتسوية: ابن النديم: الفهرست. بيروت، دار المعرفة، لا.ت، ص ١٧٩، ود. زاهية قدورة: الشعوبية وأثرها الاجتماعى والسياسى فى الحياة الإسلامية فى العصر العباسى الأول. بيروت، دار الكتاب اللبنانى، ط١، ١٩٧٢م، ص٩٩، ونكلسن: تاريخ الأدب العباسى . ترجمة صفاء خلوصى. بغداد، المكتبة الأهلية، ص٥١.

(٢٠) الجاحظ حياته وآثاره، ص٢٤٢.

(٢١) وصل كتاب الجاحظ فخر السودان على البيضان كاملاً، ونشره عبد السلام هارون ضمن رسائل الجاحظ، وسوف نتناول وصف الجاحظ للتيار الشعوبى الزنجى فى الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(٢٢) أيضًا وصلت هذه الرسالة كاملة ونشرها عبد السلام هارون ضمن رسائل الجاحظ.

(٢٣) البيان والتبيين، ٣٣/١ – ٣٤ .

(٢٤) عبد الكريم النهشلى: اختيار الممتع فى علم الشعر وعمله. تحقيق د. محمود شاكر القطان. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٨٣م، ص ٤١٨.
(٢٥) المصدر السابق، ص ٤١٩.
(٢٦) البيان والتبيين، ٣٣/١ – ٣٤.
(٢٧) الحيوان، ٥١٠/٣، والجاحظ: البرصان والعرجان، والعميان والحولان. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٣٢٤ ، ٤٠٥.
(٢٨) البرصان والعرجان ، ص٤٠٥، وانظر أيضًا المصدر السابق، ص ٣٢٤.
(٢٩) لم يصلنا هذا الكتاب ولكن أشار إليه ونقل نصوصًا منه ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابى الحلبى وشركاه، ط٢، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، ٦٨/١١، ٦٩.
(٣٠) شرح نهج البلاغة، ٦٨/١١ .
(٣١) وانظر نصًّا آخر من هذا الكتاب يدلل الجاحظ فيه بالأدلة من الأخبار والروايات على نبذ الطعن فى الأنساب، فى شرح نهج البلاغة، ٦٩/١١ .
(٣٢) د. جميل جبر: الجاحظ ومجتمع عصره. بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥٨م، ص ١٨، والجاحظ حياته وأدبه وفكره. بيروت، دار الكتب اللبنانية للطباعة والنشر، ١٩٦٨م، ص٥١، وهاملتون جب: دراسات فى حضارة الإسلام. ترجمة د. إحسان عباس، ود. محمد يوسف نجم، ود. محمد زيدان. دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٧٩م، ص٩٣ –٩٤ ، و د. عبد السلام المسدى ، قراءات مع الشابى والمتنبى والجاحظ وابن خلدون. دار سعاد الصباح، ١٩٩٣م، ص١٠١ .
(٣٣) البيان والتبيين، ٥/٣ – ١٢٤.
(٣٤) البخلاء، ص ٩– ٢٨.
(٣٥) المصدر السابق، ص ٢١٣ – ٢٤٤.
(٣٦) د. عبد العزيز الدورى: الجذور التاريخية للشعوبية. بيروت، دار الطليعة، ط١، ١٩٦٢م، ص١١٢، وانظر أيضًا: الجاحظ ومجتمع عصره، ص ١٧، والجاحظ حياته وأدبه وفكره ، ص٣٤، وفاروق سعد: مع بخلاء الجاحظ. دراسة تحليلية مقارنة مع منتخبات. بيروت، دار الآفاق، ط٤، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م، ص٣٣، والشعوبية والأدب أبعاد ومضمونات ، ص٣٧٢ ، وضياء الصديقى: بحث بعنوان

"فنية القصة فى كتاب البخلاء والجاحظ" منشور ضمن مجلة عالم الفكـر. المجلـد العشرون، العدد الرابع ، ١٩٩٠م ، ص١٥٩، ومادة بخل لشارل بللا فـى دائـرة المعارف الإسلامية، النسخة العربية إعداد وتحرير. إبراهيم زكى خورشيد، وأحمد الشنتناوى، وعبد الحميد يونس. القاهرة، كتـاب الشـعب، ط٢، ١٩٦٩م، ٣٨٨/٦، ود. محمد نبيه حجاب : مظاهر الشعوبية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى. القاهرة، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، ص ٤٤٧-٤٤٨، فى حين تذكر د. وديعة طه النجم أن الصراع العنصرى أو الشـعوبية لـم تكن هى العامل الحقيقى الذى دفع الجاحظ وغيره من المؤلفين للكتابة فـى البخـل والبخلاء، انظر كتابها : الجاحظ والحاضرة العباسية، ص ٢١٧.

(٣٧) البخلاء ، ص ١٤٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ – ٢٠٦ .

(٣٨) البرصان والعرجان ، ص ٨٣ .

(٣٩) المصدر السابق ، ص ٣١ ، ٣٤ .

(٤٠) المصدر السابق، ص ٨٣.

(٤١) المصدر السابق ، ص ٣٧.

(٤٢) المصدر السابق، ص ٤٥.

(٤٣) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة فـى نفـى التشـبيه، ٣٠٧/١ ، وانظر أيضًا الحيوان، ٣٩/٣ .

(٤٤) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة فى الجـد والهـزل، ٢٤٠/١ ، ٢٦٥ .

(٤٥) معجم الأدباء، ٢١١٨/٥.

(٤٦) د. شوقى ضيف: العصر العباسى الثانى. القاهرة، دار المعـارف، ط٢٦، ١٩٨٦م، ص ٥٩٨ .

(٤٧) د . محمد عمارة : العرب والتحدي. القاهرة، كتـاب الهـلال، ديسـمبر١٩٨٢م/ ١٤٠٣ هـ ، ص ٧٣- ٧٤ .

(٤٨) المرجع السابق ، ص ٧٤ .

(٤٩) رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون. رسالة فى الجد والهزل، ٢٤٠/١.

(٥٠) ذكر الجاحظ فى نص مهم فى كتاب مفقود له أسباب ميل الفرس للواط وعدم وجود هذا الميل عند العرب فى جاهليتهم . انظر هذا النص فى كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب، للثعالبى. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥م، ص ٥٥٣ – ٥٥٤ ، وانظر بشأن هذه الرسالة والرمز فيها للصراع بين الشعوبية والعرب ، د. مصطفى الصاوى الجويني : مدارس التفسير القرآني. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥م، ص١٨٤.

(٥١) رسائل الجاحظ: تحقيق عبد السلام هارون. رسالة مفاخرة الجوارى والغلمان، ٢/ ١٠٥.

(٥٢) رسائل الجاحظ: تحقيق عبد السلام هارون. من كتابه فى تفضيل البطن على الظهر، ١٦٢/٤.

(٥٣) المصدر السابق، ١٦٤/٤ .

(٥٤) الجاحظ حياته وآثاره، ص ٢٨٦ – ٢٨٧.

(٥٥) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. من رسالته فى مدح التجارة وذم عمل السلطان، ٢٥٥/٤ – ٢٥٦ .

(٥٦) انظر الحيوان، ٢٩/٣ ؛ ١٠٥/٥ ؛ ٩/٦ – ١٠ ؛ ٩/٧ .

(57) DR. SAID H. MANSUR: THE WORLD VIEW OF AL- JAHIZ IN K. AL- HAYAWAN (ALEXANDRIA, DAR AL MAAREF,76 – 1977), P.105 .

(58) THE WORLD VIEW OF AL-JAHIZ, P. 45.

(59) THE WORLD VIEW OF AL-JAHIZ, P. 117.

(٦٠) د. شارل بللا: الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامراء. ترجمة د. إبراهيم الكيلانى. دار اليقظة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦١م، ص ٨–٩ ، ٤٠٢ ، والعصر العباسى الثانى ، ص ٥٩٨ ، ٦٠١، والجاحظ حياته وآثاره ، ص ٤٠٣ – ٤٠٦، وصموئيل عبد الشهيد: الروح العلمية عند الجاحظ فى كتاب الحيوان . بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ، ط ١ ، ١٩٧٥م ، ص ٥ .

(٦١) الحيوان، ١٥٠/٢ – ١٥١ .

(٦٢) المصدر السابق، ١٥١/٢ – ١٥٢.

(٦٣) المصدر السابق، ٩٠/٦ – ٩١ .

(٦٤) المصدر السابق، ٢٤٦/١.

(٦٥) د. على أبو ملحم: مقدمة "رسائل الجاحظ، الرسائل السياسية". بيروت، دار مكتبة الهلال، ط١، ١٩٨٧م، ١٨– ١٩.

(٦٦) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة فى الحنين إلى الأوطان، ٢/٢٠٥ –٢٠٦ ، ورسائل الجاحظ. الرسائل السياسية . جمع د. على أبو ملحم ، ص ١٩.

(٦٧) البيان والتبيين، ٢ /٧١ –٧٢ .

(٦٨) مناهج التأليف عند العلماء العرب قسم الأدب ،ص ١٦٩ .

(٦٩) معجم الأدباء، ٥ / ٢١١٩ – ٢١٢٠ .

(٧٠) وقد يكون هذا الخطأ من أحد نسّاخ الكتاب أو من محققه وليس من ياقوت نفسه.

(٧١) انظر البحث القيم الذى كتبه أستاذنا الدكتور سعيد منصور حول كتاب المحاسن والأضداد فى نسبته إلى الجاحظ وانتمائه إلى المرحلة الكلامية ضمن كتابه: النثر العربى فى مراحل تطوره حتى نهاية القرن الثالث الهجرى، ص ١٧٦– ١٩٧.
وفيه ينفى د. سعيد منصور صحة نسبة هذا الكتاب للجاحظ ؛ لأن الأسلوب المتبع فى هذا الكتاب هو عرض الروايات دون تدخل مؤلف الكتاب فيها ، خلاف أسلوب الجاحظ الذى يجمع بين الرواية والتأليف ، والعرض والرأي، والفحص والبحث.

(٧٢) د. شوقى ضيف: العصر العباسى الأول.القاهرة، دار المعارف، ط٦، ص ٥٤٤ ، ٥٤٧.

(٧٣) المرجع السابق، ص ٥٤٧.

(٧٤) المرجع السابق، ص ٥٤٤.

(٧٥) مظاهر الشعوبية فى الأدب العربى، ص٤٥٢.

(٧٦) انظر فى هذا رسالتى للدكتوراة المخطوطة: أدب الجاحظ فى صلته بتيارات عصره السياسية. إشراف الأستاذ الدكتور/ سعيد حسين منصور. نوقشت بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ٢٠٠٤م، ص٢٢ – ٢٩.

(٧٧) انظر: التاج المنسوب للجاحظ. تحقيق أحمد زكى باشا. إيران. فروردين، ط١، ١٣٧٠هـ، ص٢١– ٢٢.

(٧٨) بعض الكتاب والباحثين قديمًا وحديثًا اعتقدوا صحة نسبة هذا الكتاب للجاحظ ونقلوا نصوصًا عنه مثل الزمخشرى فى كتابه: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار. تحقيق عبد الأمير مهنا. بيروت، مؤسسة الأعلمى، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ٢/٤٥١؛

١٠٤/٣. وفى العصر الحديث ممن أكد نسبة كتاب التاج للجاحظ أحمد زكى باشا فى مقدمته لكتاب التاج، ص٤٧، والدكتور عبد الحكيم بلبع فى كتابه: النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه. القاهرة، لجنة البيان العربى، مطبعة الرسالة، ١٩٦٩م، ص٢١١، والدكتور محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه: الأدب العربى وتاريخه فى العصرين الأموى والعباسى. بيروت، دار الجيل، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٣٥٩، والدكتور فوزى عطوى فى كتابه: الجاحظ دائرة معارف عصره. بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ص٩٧.

ومن الباحثين الذين يرفضون نسبة كتاب التاج للجاحظ – وأنا أتفق معهم فى هذا كل الاتفاق – حسن السندوبى فى كتابه: أدب الجاحظ. القاهرة، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، ص١٥٢، ومحمد كرد على فى كتابه: أمراء البيان. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م، ٣٦٠/٢، وكارل بروكلمان فى كتابه: تاريخ الأدب العربى. ترجمة د. عبد الحليم النجار. القاهرة، دار المعارف، ١٢٦/٣ – ١٢٧، ود. شوقى ضيف فى كتابه: العصر العباسى الثانى، ص ٥٢٥، ود. محمد زغلول سلام فى كتابه: دراسات فى الأدب العربى، العصر العباسى. منشأة المعارف بالإسكندرية، ص٤٥١، ومن الباحثين الذين أشاروا لكون كتاب التاج ملصقًا على الجاحظ من قبل بعض الشعوبيين الدكتور عبد العزيز الدورى فى كتابه: الجذور التاريخية للشعوبية، ص٦٧، والدكتور على أبو ملحم فى كتابه: المناحى الفلسفية عند الجاحظ. بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨٨، ص٢٧٩.



الفصل الثانى

أنواع التيارات الشعوبية ومواجهة الجاحظ لها

تصوير الجاحظ للنشاط الشعوبي فى عصره

يصور الجاحظ النشاط الشعوبي فى عصره تصويرًا يتضح فيه النفوذ الكبير الذى وصل إليه الموالى فى ذلك العصر، والأدوار المختلفة التى لعبوها فى شتى مجالات الحياة لإظهار هذا النفوذ الواسع الذى طالما طمحت أنفسهم إليه فى عصر بنى أمية، وقد واتتهم الفرصة لتحقيقه مع عصر الدولة العباسية التى قامت على أكتافهم(١).

والجاحظ يذكر أن الموالى كانوا فى العصر العباسى دائمًا ما يرددون هذه النغمة: فى أن دولة بنى العباس قد قامت على كواهلهم؛ ولذا فهم جديرون بأعلى المناصب فى الدولة وأحسن الأوضاع فيها، يقول الجاحظ متحدثًا بلسانهم: " ونحن أهل هذه الدولة، وأصحاب هذه الدعوة، ومنبت هذه الشجرة ومن عندنا هبت هذه الريح.

والأنصار أنصاران: الأوس والخزرج نصروا النبى ﷺ فى أول الزمان، وأهل خراسان نصروا ورثته فى آخر الزمان. غذانا بذلك آباؤنا وغذونا به أبناءنا، وصار لنا نسبًا لا نُعْرف إلا به، ودينًا لا نُوَالى إلا عليه"(٢).

وقد كافأ العباسيون الموالى لما أسدوه لهم من مساعدات جسيمة فى قيام دولتهم، فوضعوهم فى أعلى مناصب الدولة؛ فكان منهم الوزراء والكتاب وقادة الجند.

وأخذت الدولة العباسية بفعل تساهل الخلفاء مع الموالى ومنحهم المناصب الكبرى فى الدولة تصبغ صبغة جديدة، فقد انتقل الجهاز الإدارى الذى تسير به دولة الفرس القديمة للعباسيين(٣).

وتشكلت الدولة بصبغة أعجمية، وفى هذا يقول الجاحظ: إن دولة بنى العباس "عجمية خراسانية، ودولة بنى مروان عربية أعرابية وفى أجناد شامية"[٤].

ويعرض الجاحظ مظاهر هذا النفوذ الكبير الذى وصل له الموالى فى العصر العباسى، وما صاحبه من تيار شعوبى هادر يحاول أن يعصف بكل عريق ومجيد فى الأمة.

ومما يعرضه الجاحظ عنهم أنه وصف محاولاتهم التغلغل فى كل مجالات الحياة من سياسية ودينية واجتماعية وأدبية، وأنهم حاولوا أيضًا احتكار المناصب الكبرى فى الدولة – باستثناء منصب الخليفة – ، وأنهم سعوا لفرض نفوذهم على الأسواق التجارية ليتحكموا فى البيع والشراء[٥]. ويصف الجاحظ حرصهم على جمع المال واكتنازه، ومحاولتهم إخضاع العرب لهم من خلال استدانتهم منهم، ومن ذلك ما يخبرنا به الجاحظ عن أبى سعيد المدائنى الذى كان من أصحاب الأموال الكثيرة – على حد وصف الجاحظ له – وكان قد أقرض رجلاً من بنى ثقيف مبلغًا من المال، ولما اتهم أبا سعيد أحد إخوان الرجل الثقفى بأنه لا يأتى أبا سعيد فى كل يوم إلا رغبة فى طعامه لا طلبًا للدين الذى له عليه، أقسم أبو سعيد أنه لن يأخذ من الثقفى ماله ، وبعد أن ألح عليه الثقفى فى أن يأخذ منه ماله الذى له عليه قال له "أظن الذى دعا صاحبك إلى ما قال أنه عربى وأنا مولى فإن جعلت شفعاءك من الموالى أخذت هذا المال، وإن لم تفعل فإنى لا آخذه ، فجمع الثقفى كل شعوبى بالبصرة حتى طلبوا إليه أخذ المال"[٦].

وهذه الرواية إلى جانب ما تطلعنا به من ثراء عدد كبير من الموالى واستخدامهم هذا الثراء لإظهار نفوذهم الكبير الذى وصلوا إليه فى العصر العباسى فإنها أيضًا تصور لنا كيف أن الموالى كانوا يشعرون فى ذلك العصر أنهم قد أصبحوا جماعة لا يستهان بها فى المجتمع .

وإذا كانت أية رابطة أو جماعة تحتاج ليكون لها التأثير فى المجتمع إلى أن يكون لها تنظيم يشملها من القادة والأتباع، والى المال الذى تدبر به شئونها، فإننا نستطيع أن نقول إن عددًا لا بأس به من بين الموالى المائلين للشعوبية قد جمع بين امتلاك المال وحيازة المنصب السياسى الكبير فى الدولة فى عصر الجاحظ، وبذلك شكلوا تيارًا يجمع بين التنظيم الجيد وامتلاك الأموال.

وإذا كانت الرواية السابقة قد وضحت كيف أن عددًا منهم كان يمتلك الأموال الكثيرة، ويستغلها فى السيطرة على مجريات الأمور، ومحاولة إذلال العرب بإلجائهم للاقتراض منهم ثم مطالبتهم بما لهم عليهم – فإننا نذكر هنا نصًّا آخر للجاحظ يدل على أن الشعوبيين كانوا جماعات منظمة لهم قادة يوجهونهم للأغراض المتفق عليها بينهم فى استعادة أمجادهم القديمة ومحاولة تشويه كل ما يمس العرب.

ويذكر الجاحظ فى هذا النص أن النضر بن إسماعيل كان رئيس الشعوبية فى البصرة وكان يكنى أبا المنذر، وكان قاصًّا بليغًا شجاعًا[٧].

وإذا كان للشعوبية رئيس فى البصرة فالمفترض أن يكون لهم رؤساء آخرون فى الأماكن الأخرى من الدولة العباسية التى يتجمعون فيها ويحاولون فيها فرض نفوذهم .

على أن هذه التنظيمات التى كانت تضم الشعوبيين، وإن توحدت على المستوى الفكري ووحدة الهدف فإنها لم تستطع أن تتوحد على المستوى السياسي، بمعنى أن ينصهر بعضها فى بعض وتجمع عزيمتها من أجل الانقلاب الثوري على الدولة فى كل أرجائها فى وقت واحد، وكان من أسباب عدم توحد هذه التنظيمات سياسيًّا ما كان يقوم به الخلفاء العباسيون من مراقبة شديدة لنشاطهم، وقضائهم على رؤسائهم حين يخافون أن يستفحل أمرهم وتكبر شوكتهم.

ومن ذلك قضاء خلفاء الدولة العباسية على زعماء الموالى الذين عُرِفوا بتأييدهم للاتجاهات الشعوبية كالبرامكة والفضل بن سهل[^].

إلى جانب أن العرب كانوا من حين لآخر يقومون بعقاب أصحاب الصيحات الشعوبية، ومن ذلك تلك الرواية التى يقول فيها الجاحظ: إن الحكم ابن قنرمازني " قد عظم شأنه فى بنى تميم، حتى كان يصلى على جنائزهم، فلما لجّ فى رأى الشعوبية، وقال فى ذلك الأشعار، ضربته بنو مازن، وهم مواليه، فلما ألحوا عليه فى الضرب نادى: يا آل تميم! فقال أعرابي:

يدعو تميمًا وتميم تضربه تلطمه طورًا وطورًا تركبه"[٩].

وبسبب يقظة الخلفاء العباسيين للشعوبية وزعمائهم فى العصر العباسي الأول، ومقاومة العرب لهم، فإن تأثيراتهم السياسية تبدو ضعيفة إلا من ثورات قام بها بعض زعمائهم فى خراسان وما جاورها للاستقلال عن الدولة العباسية، وقد تم القضاء عليها وعلى هؤلاء الثائرين.

فى حين أننا سنجد أن الأنشطة التى قام بها الشعوبيون فى مجالات الفكر والأدب كانت أكثر وضوحًا وأشد تأثيرًا؛ لأن القائمين بها لم يكن يُضيق عليهم من قبل الدولة بالشكل نفسه الذى يُضيق به على الشعوبيين أصحاب الأهداف السياسية فى الاستقلال عن الدولة العباسية.

بقى أن نذكر هنا – وقبل أن ندرس أنواع التيارات الشعوبية – أن الجاحظ قد وضح أن كل محاولات الشعوبيين فى عصره لفرض نفوذهم فى شتى مجالات الحياة لم تستطع أن تمحو النفوذ العربي القوى فى الدولة والمجتمع، وأكبر مثال على ذلك حرص الكثير من الموالي على الانضواء تحت النسب العربي والانسلاخ من النسب الفارسي.

ومن ذلك يقول الجاحظ: إن مولى لأبى بكر الشيبانى ادّعى إلى العرب من ليلته، فأصبح إلى الجلوس فى الشمس فمر به محمد بن منصور،

فرآه فإذا هو فى ضاحية، وإذا هو يحك جلده بأظافره خمْشًا وهو يقول: إنما نحن إبل!

وقد قيل له مرة: إنك تتشبه بالعرب فقال: ألى يقال هذا؟ أنا والله حرباء تنضية، يشهد لى سواد لونى، وشعاثتى، وغور عينى وحُبِّى الشمس[١٠].

ويذكر الجاحظ روايات أخرى لرجال من الموالى ادعوا النسب إلى العرب، وتحايلوا فى ذلك بالتشبه بالعرب فى العمل بعاداتهم فى الجلوس للشمس والحديث بطريقتهم[١١] . وكل هذا يؤكد أن نفوذ العرب كان لا يزال كبيرًا فى ذلك العصر على الرغم من نشاط الموالى الكبير فى كل مجالات الحياة ومختلف أشكالها.

أنواع التيارات الشعوبية

واجه الجاحظ الشعوبية فى كل أنواعها وعناصرها، وردّ على افتراءاتهم وادعاءاتهم على العرب والإسلام[١٢]، ولم يترك بابًا حاول الشعوبيون أن يلجوا منه لطمس حضارة العرب أو للنيل من الإسلام إلا دخله وراءهم ليقضى على مزاعمهم ويوضح الحقائق التى حاولوا طمسها أو النيل منها.

وقد كان النشاط الشعوبي الذى استفحل أمره فى العصر العباسي الأول يتمثل فى ثلاثة تيارات هى: التيار السياسي والتيار الديني والتيار الأدبي.

وتتداخل هذه التيارات تداخلاً كبيرًا حتى لتصبح المسافات بينها قليلة أو معدومة، فقلما نرى شعوبيًّا سياسيًّا إلا جمع لذلك الزندقة، وكذلك قلما نرى شاعرًا أو أديبًا شعوبيًّا إلا وأضمر بغض العرب والإسلام، ويتمنى فى نفسه

زوال الدولة العباسية ، ويعمل ما فى وسعه من أجل هذه الرغبات المتراكمة فى داخله.

التيار الشعوبي السياسي

أما عن التيار الشعوبى السياسي فهو يتضح من خلال ما كان يقوم به بعض الثوار الشعوبيين من محاولة عمل انقلابات وحروب ضد الدولة من أجل اجتزاء أجزاء منها لتصبح بحوزتهم، وتخرج عن سلطة الدولة العباسية.

كما أن هذا النشاط السياسي كان يتضح أيضًا من خلال ما يقوم به بعض كبار رجال الدولة من وزراء وكتاب وقادة جند ينتمون لأصول غير عربية، يحاولون هم أيضًا المساس بكيان الدولة العباسية وإعادة السلطان للفرس أو للترك، وكان عمل هذا الفريق يجنح إلى الخفاء والمداراة فى كثير من الأحوال عند قيامة بنشاطه الشعوبي ضد الأمة العربية والإسلام؛ خوفًا من أن يكشف الخلفاء وكبار رجال الدولة الآخرون من العرب ميولهم وخططهم ضد الدولة فيقضوا عليهم.

على أن هذا الفريق الأخير الذى يميل للعمل السياسي فى بطانة الخلفاء العباسيين وتحت جناح الدولة العباسية، ويحاول زرع خلايا الشعوبية وإعادة الأمجاد الفارسية – كثيرًا ما كانت قدمه تزل فيفتضح أمره للخلفاء العباسيين، فيكون جزاؤه القتل أو السجن أو التشريد .

وقد واجه الجاحظ التيار الشعوبي السياسي بنوعيه: التيار الثوري الذى يعمل فى واضحة النهار من أجل القضاء على الدولة العباسية، والتيار الآخر الذى يشرع أسلحته فى الخفاء ضد الدولة ودينها الإسلام.

وتبدو مواجهة الجاحظ للتيار الشعوبي الثوري، فى حديثه عن بعض الشعوبيين الذين ثاروا ضد الدولة – خاصة فى مشرق العالم الإسلامي – وحاولوا الخروج عن الدولة واجتزاء أجزاء منها.

ومن هؤلاء الشعوبيين الثوار الذين تحدث عنهم الجاحظ – المقنع الخراساني الذى ثار بخراسان فى عهد المهدى، وكثر أبتاعه، وكاد يستقل بخراسان لولا أن أرسل له المهدى جيشًا بقيادة معاذ بن مسلم فى نحو سبعين ألف مقاتل، وطاوله كثيرًا حتى ظفر به وبأصحابه سنة ١٦٩ هـ(١٣).

ويعطينا الجاحظ فى كتابه "البرصان والعرجان" بعض معلومات عن المقنع تفيد أنه ثائر جمع بين الخروج على الدولة وعلى دينها أيضًا، فيقول: "وكان المقنع الذى ادعى الربوبية بخراسان أيام حميد بن قحطبة، أعور قصارًا يسمى عطاء"(١٤).

وفى كتاب البيان والتبيين يقدم الجاحظ صورة ساخرة عن هذا الثائر على الدولة تظهر قبحه بما لا مثيل له ، وغباء من اتبعه وصدقه، يقول الجاحظ: "و كان المقنع الذى خرج بخراسان يدعى الربوبية، لا يَدَع القناع فى حال من الحالات. وجهل بادعاء الربوبية عن طريق المناسخة، فادعاها من الوجه الذى لا يختلف فيه الأحمر والأسود، والمؤمن والكافر، أن باطله مكشوف كالنهار. ولا يعرف فى شئ من الملل والنحل القول بالتناسخ إلا فى هذه الفرقة من الغالية. وهذا المقنّع كان قصَّارًا من أهل مرو، وكان أعور ألكن فما أدرى أيهما أعجب، أدعواه بأنه ربّ، أو إيمان من آمن به وقاتل دونه؟! وكان اسمه عطاء"(١٥).

كما يؤكد الجاحظ فى موضع آخر أن المقنع وكل من ادعى الربوبية ذهبوا إلى التناسخ الذى يتهافتون به، وفساده كثير(١٦).

على أنه مما يلفت النظر قول الجاحظ بأن باطل المقنع بادعاء الربوبية واضح كالنهار، ولكن هذا النهار من الغريب أنه قد التبس على كثير من أهل خراسان – أو بمعنى أوضح لم يعنهم النظر إليه – وآمنوا بالمقنع، وثاروا على الدولة تحت لوائه؛ مما يعنى أن هؤلاء الثائرين معه على الدولة لم يكن يعنيهم أن يكون ما يدعيه المقنع حول نفسه ودعوته هو الحق الجلي

كالنهار بقدر ما كان يعنيهم الانقلاب السياسي على الدولة العباسية والحكم العربي.

وقد تحدث الجاحظ عن ثائر شعوبي آخر ضد الدولة هو بابك الخُرَّمِيّ الذى بدأت ثورته ضد الدولة فى عهد المأمون سنة ٢٠١هـ فى مدينة البد[١٧]، واستمرت ثورته وحروب الدولة معه حتى قبض عليه وقضى على ثورته فى عهد المعتصم سنة ٢٢٣هـ[١٨].

وقد طالت الفترة التى ثار خلالها بابك على الدولة، وهزم خلالها كثيرًا من جيوش الدولة، وقتل عددًا كبيرًا من قادتها العظام، كما أنه كَبَّد الدولة خسائر كثيرة فى الأرواح والأموال[١٩].

وكما كانت ثورة المقنع مزيجًا من العمل السياسي والديني ضد الدولة ودينها الإسلام، فكذلك كانت ثورة بابك ذات صلة بالمزدكية الفارسية[٢٠]، كما أن البَابَكِيَّة نتيجة لفكر الخُرَّمِيَّة التى تعمل على تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس المجوس، ومن مبادئها أيضًا تأليه البشر، فقد ألهوا بابك، كما أن من مبادئها الإيمان بالتناسخ والإيمان بالرجعة[٢١].

ويصف لنا الجاحظ هذا الثائر على الدولة وصفًا ساخرًا بقوله: "وخبرنى من رأى بابك عند المعتصم بعد أن نزعت القلنسوة السمور من رأسه فإذا أصلع صعل الرأس"[٢٢].

ولعل هذا الوصف الساخر من الجاحظ للمقنع الخراساني وبابك الخرمي لم يكن إلا سخرية منه بهؤلاء الذين ثاروا على الدولة وحاولوا النيل منها، فالجاحظ هنا يعبث بهم ويضحك الناس عليهم، انتقامًا منهم لما كبدوه للدولة من خسائر، وإضعافًا لعزائم البقية التى لا تزال تؤمن بهم فى الأماكن التى انتشرت فيها ثوراتهم.

ويذكر الجاحظ عن هذا الثائر الشعوبي على الدولة – بابك– عداوته للإسلام، من خلال إيذائه المسلمين الذين كانوا يحافظون على إسلامهم

الحنيف دون مزجه بهذه الانحرافات الدينية التى يعمل بها بابك ومن اتبعه، وذلك فى قوله: "المخطراني: الذى يأتيك فى زي ناسك، ويريك أن بابك قد قَوَّرَ لسانه عن أصله، لأنه كان مؤذنًا هناك. ثم يفتح فاه كما يصنع من يتثاءب، فلا ترى له لسانًا ألبتة. ولسانه فى الحقيقة كلسان الثور، وأنا أحد من خُدِعَ بذلك. ولابد للمخطراني أن يكون معه واحد يعبر عنه، أو لوح أو قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصته"(٢٣).

كما أن الجاحظ يتحدث فى موضع آخر من كتبه عن عداوة بابك للإسلام وثورته على الدولة التى كبدتها كثيرًا من الخسائر فى الأرواح والأموال حتى قضى عليها المعتصم، وذلك فى قوله: "ومن ذلك بابك فإنا لا نعلم خارجيًّا فى الأرض كان أشد عداوة للإسلام وأهله، والقرآن ومن قرأ منه، بعد أن اتسعت له العساكر، وقتل القواد، وأخرب البلاد، وبعدما أودع القلوب من الهيبة والمخافة، وتجرد له(*) حتى أخذه أسيرًا، فقتله وصلبه حيث مازيار"(٢٤).

وأنت ترى أن الجاحظ فى هذه السطور القليلة قد بسط القول فى وصف خطر الثورة البابكية بقيادة بابك على الدولة، وكيف أنها كانت الأخطر ضمن الثورات التى واجهتها الدولة العباسية فى عصر الجاحظ بما فعله بابك والثائرون معه من قتل الجند وتخريب البلاد وإيداع قلوب الناس الهيبة والخوف منهم.

ويعد الجاحظ قضاء المعتصم على ثورة بابك من أعظم الأعمال التى قام بها فى داخل الدولة من أجل استتباب الأمور واستقرارها، ولما كانت هذه الثورة أخطر ما واجه الدولة من أعدائها الثائرين عليها فى داخلها فإن قضاء

(*) يقصد المعتصم.

المعتصم عليها يعنى أنه أشجع الخلفاء وأقواهم، وقاهر كل من تحدثه نفسه للمساس باستقرار الدولة.

وكان المازيار أحد الثائرين الآخرين على الدولة الذين دفعتهم شعوبيتهم الفارسية لمحاولة الخروج عنها ونهب أجزاء من أراضيها لحسابهم الخاص.

ويصف الجاحظ ثورة المازيار على الدولة العباسية فى عصر المعتصم، وقضاء المعتصم عليها وعليه بقوله: "فمن ذلك، مازيار ملك طبرستان، بعد أن تغلب، وقتل، وتهضم، وسبى وتمكن من تلك القلاع والجبال والمضائق المنيعة، والسبل الوعرة، حتى ظفر به وقتله وصلبه"[٢٥].

والملاحظ من كلام الجاحظ حول عقاب الدولة لبابك والمازيار أن الدولة العباسية عندما كانت تقبض على هؤلاء الشعوبيين الثائرين عليها كانت لا تكتفي بقتلهم، ولكنها كانت تنكل بهم قبل ذلك، ثم تمثل بجثثهم من خلال صلبها وحرقها وتقطيعها، وذلك حتى يكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه الخروج على الدولة أو الثورة عليها.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الجاحظ فى تتبعه الشعوبيين الثائرين على الدولة فى مشرق العالم الإسلامي كالمقنع الخراسانى وبابك الخرمى والمازيار والثائرين عليها فى مغربه قد حاول أن يخرج بنتيجة؛ مفادها أن الثورات والانشقاقات والانقسامات داخل العالم الإسلامي تكثر فى المغرب عنها فى المشرق، ولكنها فى المشرق تميل إلى الثورة على الإسلام ودولته ومحاولة اقتلاعهما من جذورهما، أما فى المغرب فيكتفى الثائرون بالخروج عن سلطة الدولة وإظهار بعض البدع والضلالات، يقول الجاحظ فى ذلك: "ولا أعلم الفرقة فى المغرب إلا أكثر من الفرقة فى المشرق، إلا أن أهل المغرب إذا خرجوا لم يزيدوا على البدعة والضلالة، والخارجى فى المشرق

لا يرضى بذلك حتى يجوزه إلى الكفر، مثل المقنع وشيبان(*) والإصبهبذ (**) وبابك وهذا الضرب"[٢٦].

ولعل تعليل ما ذكره الجاحظ عن كثرة الفرقة في المغرب عن المشرق، أن أهل المغرب من البربر وهم من الصعب السيطرة عليهم للطبيعة البدوية التي فيهم والتي تتأبى على الاستقرار والخضوع، فكانوا كلما قهرهم جيش من جيوش المسلمين ما يلبثون بعد حين أن يثوروا على الحكومة الحاكمة لهم ويخرجوا عليها وينفروا من الطاعة.

كما أنهم لهذه الطبيعة البدوية فيهم ، كانوا بعد إسلامهم لا يشتطون فى البعد عن تعاليم الإسلام ومنهجه .

أما أهل المشرق فقد كانت لهم قبل الإسلام حضارات عريقة كالحضارة الفارسية والحضارة البابلية، وكانت لهم ديانات كالزرادشتية والمزدكيه والمانوية، وعندما قهرتهم الدولة الإسلامية لم ينسوا كل هذا، وعمل بعض أبناء فارس وما جاورها من بلاد المشرق متأثرين بالدوافع الشعوبية على الخروج على الدولة الإسلامية وهدم مبادئ الإسلام سواء أكان ذلك بالمواجهة المباشرة كما كان حال بابك ومن على شاكلته من الثوار على الدولة ، أم من خلال تيار الشعوبية الذي كان يعمل فى الخفاء والذي كان يكنه بعض أهل البلاد المفتوحة الذين تظاهروا بالإسلام وأبطنوا الزندقة.

ولكل هذا فقد كانت الثورة فى المشرق لا تعنى محاولة الانقلاب السياسى على الدولة العباسية فحسب، بل تعنى أيضًا محاولة النيل من الإسلام وإعلان الزندقة.

(*) أحد الخوارج خرج أيام مروان بن محمد .

(**) قائد فارسى أثناء الفتوحات الإسلامية .

ولم يكتف الجاحظ بمواجهة الشعوبيين الثائرين على الدولـــة، وإنمـــا واجه أيضًا هؤلاء الشعوبيين الذين اندمجوا فى الدولة العباسية ونـــالوا أكبـــر الأدوار السياسية فيها، فحاولوا من خلال مناصبهم استعادة الأمجاد الفارســية وإفساد تراث العرب وقيمهم .

والجاحظ لا يفصِّل القول فى كتبه حول هؤلاء الرمـــوز السياســيين الذين استغلوا مناصبهم فى تأييد الشعوبية وعناصرها؛ فهو يفضل أن يعرض أفكار الشعوبية ويناقشها من أن يتعرض بالجدال والنقاش لـــبعض الأعـــلام والرموز الشعوبيين(*)؛ لأن هؤلاء الأعلام الذين ينادون بهذه الأفكار الشعوبية قد يفنون، ويأتي غيرهم يردد أقوالهم نفسها، فكانت طريقـــة الجـــاحظ فـــى الاهتمام بالأفكار والدعاوى الشعوبية والرد عليها أفضل بكثير مـــن مجـــرد الصدام مع بعض الأعلام الشعوبيين.

ثم إن كثيرًا من هؤلاء الأعلام الشعوبيين فى مجال السياســـة كـــانوا فى مناصب كبرى فى الدولة، وليس من الكياسة للجاحظ أو لغيره من الكتاب المؤيدين للعرب أن يصطدموا بمثل هؤلاء الرجال ذوى المناصـــب الكبيـــرة فى الدولة .

ولكننا – على الرغم من كل هذا – نجد الجاحظ يعرض أحيانًا مـــن طرف خفي لما كان يقوم به بعض هـــؤلاء الرجـــال الكبـــار فـــى الدولـــة من الفرس من أفعال معادية للعرب أو لما يخص بيئتهم التى جـــاءوا منهـــا ، وهى الجزيرة العربية.

(*) راجع فى هذا: د. عبد الله التطاوى: الجدل والقص فى النثـــر العباســـى. القـــاهرة، دار الثقافة والنشر والتوزيع، ١٩٨٨م، ص٨٣، ود. ميشال عاصى: مفاهيم الجماليـــة والنقد فى أدب الجاحظ. بيروت، مؤسسة نوفل، ط٢، ١٩٨١م، ص١٧٨.

ومن ذلك إشارة الجاحظ إلى ما كان يبطنه طبيبان كبيران مختصان بعلاج الخلفاء – هما سلمويه وابن ماسويه – من عداء للعرب وللإسلام، ورمزا لهذه الكراهية ، ببغض الجمل – سفينة الصحراء للعرب المشهور فى الكتب بأن راكبه النبى ﷺ [٢٧].

كما لاحظ الجاحظ أن البرامكة مع مزاياهم الكثيرة، وخدماتهم العظيمة للدولة، والتى ذكرها الجاحظ فى أكثر من موضع [٢٨] ـ أنهم ـ مع كل هذا – لم يستطيعوا أن ينحوا ميولهم الفارسية، وكراهيتهم لبعض ما يتعلق بالعرب من حيوانات وعادات فى الأكل والشرب، ومن ذلك عرضه لهذه الرواية: "كان بشر بن المعتمر خاصًّا بالفضل بن يحيى، فقدم عليه رجل من مواليه، وهو أحد بنى هلال بن عامر، فمضى به يومًا إلى الفضل ليكرمه بذلك، وحضرت المائدة، فذكروا الضب ومن يأكله، فأفرط الفضل في ذمه، وتابعه القوم بذلك، ونظر الهلالي فلم ير على المائدة عربيًّا غيره، وغاظه كلامهم، فلم يلبث الفضل أن أتى بصحفة ملآنة من فراخ الزنابير، ليتخذ له منها بزماورد – والدَّبر والنحل عند العرب أجناس من الذبان – فلم يشك الهلالى أن الذى رأى من ذِبَّان البيوت والحشوش. وكان الفضل حين ولى خراسان استظرف بها بزماورد الزنابير، فلما قدم العراق كان يتشهَّاها فتطلب له من كل مكان، فشمت الهلالي به وبأصحابه"[٢٩]. وخرج يهجوه ويهجوهم بأكلهم الذبان كما سخروا منه لأكله الضب.

وواضح من هذه الرواية أن الفضل بن يحيى البرمكى ومن معه من الفرس لم يقصدوا بذم الضب وذم من يأكله إلا الطعن فى العرب وفى مآكلهم، وأرادوا إثارة الأعرابي الذى يجالسهم بمثل هذه السخرية الواضحة، ولكن هذا الأعرابي بذكائه وبلاغته انتصر لنفسه وتشفى من خصومه حين سخر هو أيضًا من مآكلهم التى ينفر منها العربي كالذِّبَّان.

وليس فى أيدينا أى إشارة أخرى – فى كتب الجاحظ التـــى وصـــلتنا أو فى أى مصدر آخر فيه نصوص للجاحظ – ما نستدل بها علـــى أن نكبـــة الرشيد للبرامكة كان من أسبابها مثل هذه الميول الشـــعوبية التـــى وضـــحها المؤرخون والباحثون فى اجتذاب البرامكة للكتاب الفارســـيين ذوى الميـــول الشعوبية إليهم وتشجيعهم على الكيد للعرب بتأليفهم كتب المثالب، واحتضانهم الأدباء الفرس الشعوبيين، وكذلك فى مؤازرتهم لـــبعض الزعمـــاء العلـــويين المتربصين بالدولة العباسية للقضاء عليها(٣٠).

وكان الأفشين أيضًا من رجال الدولة البارزين الذين حـــاولوا الكيـــد للدولة ولخليفتها المعتصم، وذلك أنه بعد أن استطاع الأفشين القضـــاء علـــى الثورة البابكية والقبض على بابك، غرتـــه نفســـه فحـــاول أن يتعـــاون مـــع المازيار، حاكم الطبرستان لعمل الاضطرابات فى الدولة بغيـــة أن ينفصـــل ببعض أجزاء منها كخراسان، ولكن لم يتم له ما أراد، فقد اكتشف المعتصـــم تخطيطه وحاكمه، وفى المحاكمه ظهـــرت شـــعوبيته فـــى عدائـــه للعـــرب والإســـلام؛ ولذا استحق عقاب المعتصم له بقتله(٣١).

والجاحظ يذكر خلال رسالته فى الجد والهزل الأفشين على أنه أحـــد الخارجين على الدولة؛ ولذا يقـــول: لا يجـــب أن يحـــزن أحـــد أو يغضـــب لمصرعه على يد المعتصم(٣٢) .

وفى موضع آخر يذكر الجاحظ ما يدل على شعوبية الأفشين الواضحة ضد العرب، وذلك فى قول الجاحظ: "وكان الأفشين يقول: إذا ظفرت بالعرب شدخت رءوس عظمائهم بالدبوس" (٣٣).

التيار الشعوبي الديني

أما المجال الثانى الذى ظهر فيه النشاط الشعوبي، وحاصر الجـــاحظ فيه الشعوبية، فهو المجال الدينى، ويتمثل فيما كان يقوم به الشـــعوبيون فـــى

خفاء وتستر من محاولة مزج تعاليم الأديان الفارسية كالزرادشتية والمزدكية والمانوية بالإسلام؛ من خلال وضع تفسيرات للقرآن الكريم متفقة مع هذه الأديان[٣٤]، ووضع أحاديث على لسان النبي ﷺ يظهر فيها وجوه للشبه مع ما تنادى به هذه الأديان الفارسية، والعمل على نشر الأديان الفارسية، فى وضوح ودون تستر، والكيد للإسلام بالطعن فى آيات القرآن الكريم من خلال إظهار ما يتوهمونه فيها من آيات متناقضات.

ويوضح الجاحظ مسالك الزنادقة فى الطعن فى الإسلام[*] بقوله "بل لا شبهة فى الزندقة خاصة فقد كانوا يصنفون فى القرآن، ويولدون الأخبار، ويبثونها فى الأمصار ويطعنون فى القرآن، ويسألون عن متشابهه، وعن خاصه وعامه، ويضعون الكتب على أهله وليس شئ مما ذكرنا يستطيع دفعه جاهل غبى، ولا معاند ذكي"[٣٥]. ولم يخف على الجاحظ أن هؤلاء الزنادقة الطاعنين فى الإسلام شعوبيون؛ ولذا نجده يربط بين الشعوبية والزندقة[٣٦] حتى كأنهما قرينتان تذكر إحداهما فتذكر الأخرى، أو يتهم أحد الناس بإحدى التهمتين فلا يلبث – فى الغالب – أن تلصق به التهمة الأخرى.

يقول الجاحظ: "فإن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعوبية والتمادى فيه، وطول الجدال المؤدى إلى القتال، فإذا أبغض شيئًا أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة. فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام؛ إذ كانت العرب هى التى جاءت به، وكانوا السلف والقدوة"[٣٧].

(*) وبصفة عامة فقد كان المعتزلة من أكثر الفرق مواجهة مع الزنادقة ، انظر:
L. GARDET ILM AL – KALAM, IN ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM, NEW EDITION, LEIDEN, 1971, P.1149 .

وكلام الجاحظ فى هذا النص فى منتهى الأهمية؛ لأنه يوضح لنا أن طريق الشعوبية قد يصل بمن يسلكه إلى الزندقة المتمثلة فى كراهية الإسلام ونبيه، كما يؤكد الجاحظ على هذه الصلة بين الشعوبية والزندقة فى قوله: "والشعوبية والآزاد مردية المبغضون لآل النبى ﷺ وأصحابه، ممن فتح الفتوح، وقتل المجوس، وجاء بالإسلام، تزيد فى جشوبة عيشهم"[٣٨] أى عيش العرب من خلال وصفهم سوء مطعمهم ومشربهم.

وفى هذا النص يتضح أن العداء الشعوبى للعرب يتمثل أساسًا من خلال النظرة للعرب على أنهم غزاة لا فاتحون جاءوا لهداية أهالى البلاد المفتوحة لدين الإسلام ؛ كما أن هذا العداء الشعوبى للعرب ، سببه الأساسي محاولتهم القضاء على المجوسية الدين الذى يبطنه أكثر الشعوبيين.

وهكذا نرى أن الشعوبيين – فى الغالب – زنادقة يتسترون بادعاء الإسلام أو يجاهرون بالزندقة دون أى ستار، وقد كانت العقائد الثنوية الفارسية أكبر ما يستمد منه الزنادقة زادهم وفكرهم[٣٩].

على أن الجاحظ لم يفته أن يذكر أن الاتهام بالزندقة لم يكن فى كل الأحوال عن حقيقة ونتيجة السير فى طريق الشعوبية، أو إظهار الإسلام وإخفاء الأديان الفارسية، بل إنه يرى أن الاتهام بالزندقة قد يكون نتيجة للخصومات السياسية أوالأدبية أوالاجتماعية، أو الإسراف فى المجون والخلاعة.

ومن الأمثلة التى يعرضها الجاحظ للاتهام بالزندقة لأغراض سياسية ما ذكره عن هشام بن عبد الملك بن مروان فى محاولته التشنيع على الوليد ابن يزيد ولى العهد بعده بأنه يصحب نفرًا من الزنادقة، يقول الجاحظ فى ذلك: "ومن البرصان: بنو عبد الأعلى الشيبانى الشعراء الخطباء: عبد الله وعبد الصمد، وأخوهما. وكان هشام بن عبد الملك بعث بهم إلى يوسف بن عمر، وكانوا أصحاب الوليد بن يزيد وخاصته، والوليد يومئذ القائم بعد

هشام، فدفعهم يوسف بن عمر إلى محمد بن نباتة، فَطَيَّنَ علـيهم إلا بمقـدار ما يدخل عليهم منه الطعام فأطعمهم ولم يسقهم، فلما أجهدهم العطش صاحوا: يا سميّ رسول الله إنا مسلمون ألا ترى اسم أبينا "عبد الأعلى" وأسماؤنا عبد الله، وعبد الصمد؟ فلم يمسوا حتى اسودوا ثم اسودوا، ثم برصوا، ثم سلخوا.

وإنما قالوا ذلك لأن هشامًا بعث بهم إلى يوسف على أنهم زنادقـة ، وأراد بذلك التشنيع على الوليد"(٤٠).

كما أن الجاحظ يعرض بعض ادعاءات الشـعراء علـى خصـومهم كاتهام بعضهم بعضًا بالزندقة رغبة فى الانتقام منهم وتشويه صـورتهم(٤١). والجاحظ لا يتسرّع بتصديق مثل هذه الاتهامات؛ لأنه يعرف الغرض منهـا، وأنها ليست إلا نتيجة الملاحاة والتحريش بين الشعراء.

يضاف لكل هذا أن الجاحظ كان ممن لا يتسرعون فى الحكم بالزندقة على الناس مادام المتهمون بها لم يعلنوهـا إعلانًـا واضـحًا بـين النـاس، وما دامت قرائن الزندقة عليهم غير واضحة وكافية(٤٢). ويعيب الجاحظ على بعض المتكلمين أنهم يتسرعون بإكفار أهل المعاصى ورمى النـاس بـالجبر أو بالتعطيل، أو بالزندقة(٤٣).

التيار الشعوبى الأدبى

أما المجال الأخير الذى واجه الجاحظ فيه الشـعوبية فهـو المجـال الأدبي، وفيه تجلت مواهب الجاحظ الأدبية والبلاغية؛ لأنه رد من خلاله على ادعاءات الشعوبية على العرب فى لغتهم وخطـابتهم وشـعرهم، وأنسـابهم وفنون قتالهم، وما إلى ذلك مما جرد الشعوبيون فيه كتـب المثالـب علـى العرب.

أيضًا كشف الجاحظ فى المجال الأدبى عن الوجوه الشعوبية فى حملة الأخبار ورواة الأشعار، والأدباء والشعراء الذين امتزجوا بـالمجتمع الـذى

عاش فيه، ونبه لأساليبهم الخبيثة فى محاولة النيــل مــن الثقافــة العربيــة، أو محاولتهم إعلاء الميراث الفارسى القديم.

نظرة الجاحظ للرواة والأدباء المتهمين بالشعوبية

ذكرنا أن الجاحظ كان قلما يهتم بذكر الأشخاص المناصرين للتيــار الشعوبى ، وإنما كان يكتفى بعرض أفكارهم ومواجهتها وإفسادها.

ولكن مع هذا فالجاحظ كان يحرص على أن يــذكر بعــض الأدبــاء والرواة الشعوبيين ناسبًا لهم الاتهام بالشعوبية؛ لما كان يراه من وجوب تنبيه القارئ لمؤلفاتهم التى تحاول طمس الحقائق بتشويه العرب فى كل ما يتعلــق بهم من تراث وعادات ودين.

ومن ذلك حديث الجاحظ عن يونس بن أبى فروة والهيثم بن عَدِىّ.

أما عن يونس بن أبى فروة فالجاحظ ينبه إلــى شــعوبيته وزندقتــه فى أكثر من موضع، فهو فى كتاب الحيوان يقول: إنه كان مشهورًا بالزندقة، ويدلل الجاحظ على شعوبيته وزندقته بقوله عنه: "وقد كان كتب كتابًــا لملــك الروم فى مثالب العرب، وعيوب الإسلام بزعمه" [٤٤].

ويذكر الجاحظ أن الدولة قد طاردتــه بعــد أن بــان لهــا زندقتــه وشعوبيته، ولكنه اختفى فى بليدة فى سواد الكوفة تسمى النيل حتى هلك[٤٥].

أما الهيثم بن عدى فقد كانت وقفات الجاحظ معه أكثــر، وتنويهــات الجاحظ على مسالكه الشعوبية متعددة. وقد كان الهيثم عالمًا بالشعر والأخبار والمثالب والمناقب والمآثر والأنساب، وكان يُطعن فى نسبه، [٤٦] وهو كــوفي ثم انتقل إلى بغداد، وكان إلى جانب ما اتصــف بــه مــن صــفات علميــة مليح الشكل نظيف الثوب طيب الرائحة حلو المحاضــرة ، وكانــت وفاتــه سنه ٢٠٧هـــ [٤٧].

والجاحظ يؤكد على تمكنه فى علم الأنساب بقوله :" كان هشام بن محمد علامة نسابة، وراوية للمثالب عيابة، فإذا رأى الهيثم بن عدى، ذاب كما يذوب الرصاص فى النار"[٤٨].

كما يذكر الجاحظ أن الهيثم كان يرى رأى الخوارج.[٤٩]

وقد استغل الهيثم بن عدى علمه الواسع بالأنساب فألف عددًا من الكتب فى مثالب العرب وتمجيد تاريخ العجم، يقول عنها صاحب الفهرست: من كتب الهيثم: "كتاب تاريخ العجم وبنى أمية، كتاب المثالب الصغير، كتاب المثالب الكبير، كتاب مثالب ربيعة"[٥٠].

ولم تصل إلينا هذه الكتب، ولكن بعض الكتاب والمؤرخين نقلوا فقرات منها، وهى تدل على طعن الهيثم فى أنساب العرب ومحاولة تشويهها[٥١].

والجاحظ لم يشر فى كتبه التى وصلتنا لمؤلفات الهيثم السالف ذكرها فى مثالب العرب، ولكنه ذكر بعض كتب أخرى له طعن فيها على العرب، كما نوه فى مناسبات كثيرة إلى روايات عن الهيثم بن عدى تجانبها الصحة، وتظهر فيها نزعته الشعوبية.

ففى كتاب البرصان والعرجان يذكر الجاحظ أن الهيثم بن عدى ألف كتابًا عن أصحاب العاهات والأمراض المزمنة فى العرب .

أما منهج الجاحظ فى هذا الكتاب فقد ذكرنا من قبل أنه يشير فيه إلى أصحاب التميز والمواهب من العرب الذين أصيبوا ببعض الأمراض المزمنة والعاهات. وأما منهج الهيثم فى كتابه – كما يتضح من بعض الصفحات التى نشرت منه[٥٢] – فيقتصر على ذكر المرض المزمن أو العاهة، ثم يعرض للمصابين به أو بها من العرب دون أى ذكر لجوانب تميزهم وتفوقهم.

ولهذا الاختلاف الكبير بين منهج كلا الكاتبين وعرضهما لهذا الموضوع الحساس، نجد الجاحظ يكرر فى أكثر من موضع من كتاب

البرصان أن منهجه فيه مخالف لمنهج الهيثم فى كتابه حول هذا الموضــوع، فهو يقول فى أحد مواضعه: "وقد خفت أن تكون مسألتك إياي كتابًا فى تسمية العرجان والبرصان، والعميان والصُّمَّان، والحولان، من الباب الذين نهيتــك عنه، وزهدتك فيه.

وذكرت لى كتاب الهيثم بن عَدِىّ فى ذلك، وقد خبرتك أن لــم أرض بمذهبه ولم أحبه له حظًّا فى حياته، ولا لولده بعد مماته".[(٥٣)]

وكما حاصر الجاحظ الهيثم بن عدى فى كتابه الذى ألفه عن بعــض أصحاب الأمراض وذوى العاهات فى العرب ، وذكر فساد منهجه وشعوبيته فيه ، ورد عليه بكتاب فى الموضوع نفسه، ولكنه يشير لجوانب التميز فــيهم – فإن الجاحظ قد فضح مسالك الهيثم الشعوبية عند عرضه لكثير من رواياته التى نقلها عنه فى كتبه، ودلل على أنه بهذا متهم فى الراوية[(٥٤)].

ومن ذلك رواية الهيثم لحديث عن العــرب يظهــر فيــه مبالغــات وانتقاص لحياتهم، ويشكك الجاحظ فى صحة هذا الحديث بقوله: "وأنــا أتهــم هذا الحديث لأن فيه ما لا يجوز أن يتكلم به عربى يعرف مــذاهب العــرب وهو من أحاديث الهثيم"[(٥٥)].

كما يعرض الجاحظ بعض أقوال وأخبار فى كتاب البيــان والتبيــين، ثم يعلق عليها بقوله: "وهذه الأشياء ولدها الهيثم بن عدى" [(٥٦)].

وهكذا نرى أن الجاحظ يعرض كل خبر عن الهيثم على مقياس النقد ليتضح له مدى صحته أو تزييفه ، وذلك بغرض تنقية التراث العربــى ممــا يحاول الشعوبيون كالهيثم بن عدى دسَّه فيه لتشويهه.

وقد لاحظ الجاحظ أن الهيثم لم يكتف بمحاولة تشويه التراث العربــى بما يحمله من أخبار وتاريخ، ولكنه حاول أيضًا أن يهزأ من كبــار الرجــال المشهود لهم بالزعامة والكفاءة عند العرب كالأحنف بن قــيس، ومــن ذلــك قول الجاحظ: "وروى الهيثم بن عدى عن أبى يعقــوب الثقفــى، عــن عبــد

الملك بن عُمير قال: قدم علينا الأحنف بن قيس الكوفة مع المصعب بن الزبير، فما رأيت خصلة تذم فى رجل إلا وقد رأيتها فيه: كان صَعْل الرأس أحْجَن الأنف، أغضف الأذن، متراكب الأسنان، أشدق، مائل الذقن، ناتئ الوجنة، باخق العين، خفيف العارضين، أحنف الرجلين، ولكنه كان إذا تكلم جَلَّى عن نفسه.

ولو استطاع الهيثم أن يمنعه البيان أيضًا لمنعه ولولا أنه لم يجد بدًّا من أن يجعل له شيئًا على حال لما أقر بأنه إذا تكلم جلى عن نفسه"(٥٧).

وهذا الحقد الذى يضمره الهيثم ضد العرب وكل ما هو عربى، لم يجعل الجاحظ يقف أمامه دون أن يشير إليه وإلى شعوبيته فى جلاء ودون مواربة.

على أننا كنا ننتظر من الجاحظ أن يذكر رواة وكتابًا شعوبيين آخرين تعرضت لهم كتب الأدب والتاريخ ونوهت إلى شعوبيتهم، ولكن الجاحظ لم يشر إليهم فى كتبه التى تعرض فيها للشعوبية ووصلت إلينا(٥٨).

وأما من ذكره منهم كسهل بن هارون وأبى عبيدة فلم يتعرض لهم بتهمة الشعوبية، أو حتى مجرد النقد الذى يشتم منه روائح الاتهام بالشعوبية.

فأبو عبيده معمر بن المثنى وصلت لنا بعض كتبه التى يطعن فيها على العرب، ككتابه "العققة والبررة" الذى يحاول أن يصف فيه رجال العرب بغير ما عرفوا به قديمًا من بر ووفاء، فيصفهم فيه بالعقوق والجحود"(٥٩).

كما وضح ابن قتيبة بجلاء بعض مطاعنه على العرب فى أطعمتهم وأنسابهم وأخبارهم، ورد عليه ابن قتيبة ردًّا شديدًا مفحمًا على كل هذه المطاعن، وأظهر الحقد الشعوبى الذى يضمره على العرب وكل ما يتعلق بهم(٦٠). وذكر عدد كبير من المؤرخين والباحثين شعوبية أبى عبيدة على أنها مما لا يمكن إنكاره أو التهوين من شأنه(٦١).

ومع كل هذه الاتهامات والأصوات التى تؤكد شعوبية أبى عبيده فإننا نجد الجاحظ لا يذكره فى أى موضع من كتبه إلا مع عبارات الثناء والإكبار والمديح، ومن ذلك قوله عنه: "وممن كان يرى رأى الخوارج أبو عبيدة النحوى معمر بن المثنى، مولى تيم من مرة، ولم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلم منه" [٦٢].

كما يذكره الجاحظ على أنه أحد الرواة الموثوق بهم[٦٣]، وتتعدد نقول الجاحظ عنه فى مواضع مختلفة من مؤلفاته، يرويها على سبيل الثقة والتيقن لثقته بحاملها[٦٤].

ولم يخالفه الجاحظ إلا فى مواضع قليلة كتفسيره لآية فى القرآن رأى الجاحظ أن أبا عبيدة لم يحسن تأويلها، وذكر تأويله هو لها المخالف لتأويل أبى عبيدة [٦٥] .

وهكذا نرى أن صورة أبى عبيدة عند الجاحظ تخلو من أى اتهام بالشعوبية، وكذلك الأمر فى سهل بن هارون فإن الجاحظ يطنب فى مدحه بفنون البلاغة المختلفة التى أجادها، ويصف براعته وحسن حديثه[٦٦] دون أن يذكر شيئًا عن شعوبيته التى اتهمه بها كثير من الكتاب والمؤرخين والباحثين[٦٧].

على أن الجاحظ قد كشف عن صفة خلقية سيئة فى سهل بن هارون هى حبه للبخل، وأثبت له رسالة فى كتاب البخلاء فى الانتصار للبخل والاقتصاد فى النفقة ومهاجمة المسرفين[٦٨]، رأى بعض الباحثين أن الجاحظ قد أراد بوضعها بهذا الشكل وصف سهل بالشعوبية؛ لأنه ممن يؤيد البخل الفارسى فى مقابل الكرم العربى.[٦٩]

ولكن هذا الاتهام لسهل من قبل الجاحظ يأتي من خلال الظن الذى يفترضه الباحثون لا اليقين الذى تؤكده النصوص الواضحة الدلالة .

فعلى كل الأحوال لا يوجد بين أيدينا نص صريح يتهم الجاحظ فيه سهلاً بالشعوبية.

وفى ظنى أن الجاحظ كان مدركًا للنوازع الشعوبية فى أبى عبيدة وسهل بن هارون، لشهرة اتهام كل منهما بها، ولكنه لم يشر إليها عملاً بقوله فى أنه لا يحب الإساءة لمن يشاركه فى حرمة الكلام[٧٠].

خاصة أن أبا عبيده كان شيخًا للجاحظ، وكان الجاحظ يجل شيوخه وأساتذته[٧١]. وسهل بن هارون كان صديقه الذى طالما جلس إليه وتحدث معه[٧٢].

يضاف لهذا أن الجاحظ لم يكن من طبعه التجريح والتشهير بالعلماء، وقد نبه هو كثيرًا لهذه الصفة فيه عند تعرضه لبعض المسائل التى يرددها بعض العلماء وينكر هو عليهم آراءهم فيها، فيكتفى عند ذلك بعرض هذه الآراء دون ذكر أسماء قائليها، ثم يأخذ هو فى الرد عليها[٧٣].

الجاحظ يفرق بين النقد الفنى والنقد الأخلاقي

وجدير بالذكر هنا أن الجاحظ كان يفرق بين النقد الفنى والنقد الأخلاقى عند الحكم على الشعراء والأدباء المتهمين بالشعوبية والزندقة، فهو حين تعرضه لشعرهم وأدبهم كان يذكر ما فيه من مزايا فنية وبلاغية أو أى قصور فنى، وفى الوقت نفسه كان ينقد ما فيه من عبارات تنافى الدين الحنيف أو تسئ إليه، أو ما فيه من أقوال تدعو إلى المجون والعبث والتهتك. وكان يلوم الشعراء الذين يصدر عنهم مثل هذه الأقوال ، ويوجه إليهم نقده الخلقي الداعى إلى العفة فى الخلق وعدم ذكر التعبيرات التى يشتم منها الكفر والإلحاد .

ولتوضيح ذلك نجد أن الجاحظ يذكر ما يدل على شعوبية بشار بن برد فى حبه الفرس ومديحه إياهم خاصة أهل خراسان منهم[٧٤]، كما يعرض

بعض أفكاره الشعوبية وزندقته التى ذكرها فى شعره، كتفضيله النـار علـى الأرض وتصويبه رأى إبليس فـى تقـديم النـار علـى الطـين، وإيمانـه بالرجعة(٧٥).

ولكن اقتناع الجاحظ بشعوبية بشار ، وذكره لآرائه التى تـدل علـى زندقته لم يمنعاه من أن يذكر أن موهبة بشار الشعرية هي أعلى القمـم فـى الشعراء المولَّدين، وأن شعره يقف مستويًا شامخًا إلى جوار شـعر الفحـول المتقدمين عليه من شعراء العرب، يقول الجاحظ فى ذلك: "والمطبوعون على الشعر من المولدين بشار العقيلى والسيد الحميري وأبو العتاهية وابـن أبـى عيينة. وقد ذكر الناس فى هذا الباب يحيى بن نوفل وسلمًا الخاسر، وخلـف ابن خليفة وأبان بن عبد الحميد اللاحقي أولى بالطبع مـن هـؤلاء، وبشـار أطبعهم كلهم"(٧٦)، كما يذكر الجاحظ بشارًا فى موضع آخر علـى أنـه مـن أصوب الشعراء المولدين بديعًا(٧٧)؛ أى تجديدًا وابتكارًا فى الصور الفنية.

وموقف الجاحظ نفسه من بشار فى تفرقته بين النظر إليه من حيـث الفن والنظر إليه من حيث الأخلاق – نجده فى نظرة الجاحظ لأبـى نـواس، فهو الآخر لا يخفى اتهامه بالشعوبية(٧٨)، ويشير الجاحظ إلى أبيات لـه تـدل على الكفر وينبه إلى ضلالها(٧٩)، كما يذكر الجاحظ ما فى شعر أبى نـواس من غزل ماجن عابث وما فيه من تهتك بذكر اللواط الذى حرمه الله، ويـذكر الجاحظ أن هذا الغزل وذاك التهتك بذكر اللواط اللذين أكثر فيهما أبو نـواس ومن على شاكلته من شعراء الشعوبية المعاصرين له مما لم يعرفه العـرب القدماء(٨٠).

وذلك ليدلل على عفة شعراء العرب القدماء ومجون شعراء الشعوبية المعاصرين له وتهتكهم .

ولكن الجاحظ حين يترك الجانب الأخلاقي فى نقده لشعر أبى نـواس إلى الجانب الفنى فيه، فإنه يعلى من قدره ويرفع من شأنه بين شعراء عصره

ومن تقدمه، ويرى أنه من أفضل أفذاذ الشعراء المولدين بعد بشار، وفى سبيل دفاعه عنه ومن على شاكلته من الشعراء المولدين البارزين يجاهد أولئك النقاد الذين لا يستحسنون إلا الشعر العربى القديم ويستهجنون ويزرون بكل ما هو جديد محدث، يقول الجاحظ فى ذلك: "وأنا كتبت لك رجزه[*] فى هذا الباب، لأنه كان عالمًا راوية، وكان قد لعب بالكلاب زمانًا، وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب، وذلك موجود فى شعره، وصفات الكلاب مستقصاة فى أراجيزه، هذا مع جودة الطبع وجودة السبك والحذق بالصنعة، وإن تأملت شعره فضلته، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية، أو ترى أن أهل البدو أبدًا أشعر، وأن المولدين لا يقاربونهم فى شئ، فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغربًا"[٨١].

كما يوازن الجاحظ بين أبيات شعرية لأبى نواس والمهلهل، فيفضل أبيات أبى نواس، ويقول: "وأبيات أبى نواس على أنه مولد شاطر أشعر من شعر المهلهل فى إطراف المجلس بكليب أخيه"[٨٢].

وهكذا شأن الجاحظ حين تناوله لأى شاعر من الشعراء سواء اتهم بالشعوبية أم بالزندقة أم بأى ميول دينية وخلقية تخالف ما عليه جماعة المسلمين، فهو دائمًا وأبدًا يفرق فى حكمه على أى منهم بين النقد الفنى والنقد الأخلاقي[٨٣].

(*) أى أبا نواس.

- هوامش الفصل الثانى -

(١) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة مناقب الترك، ١٦/١ – ١٧، وانظر أيضًا: د. أحمد الحوفى، تيارات ثقافية بين العرب والفرس. دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط ٣، ١٣٩٨ هـ /١٩٧٨ م ، ص ١٥١.

(٢) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة مناقب الترك، ١٥/١.

(٣) د. سعيد منصور. بحث بعنوان "أدب الجاحظ فى صلته بعصره"، منشور ضمن كتاب دراسات فى النثر العربى ، الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص ٣٠١– ٣٠٢، وانظر أيضًا د. طه حسين: حديث الأربعاء. القاهرة، دار المعارف، ط ١٥ ،٢/٢١ .

(٤) البيان والتبيين، ٣٦٦/٣ .

(٥) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. كتاب البغال، ٢٥٢/٢.

(٦) البخلاء، ص١٤٢.

(٧) البرصان والعرجان ، ص٣٠٥.

(٨) المطهر بن طاهر المقدسى: البدء والتأريخ. اعتنى بنشره وترجمته كلمان هوار. طبعة بايز، ١٨٩٩م، ١٠٤/٥ ، ١٠٥ ، والفهرست. ط بيروت، دار المعرفة، ص١٧٥، ٤٧٣ ، والعصر العباسي الأول، ص ٧٦، والجذور التاريخية للشعوبية ، ص٤٨، ٤٩، ٢٧٦– ٢٧٧، والشعوبية والأدب أبعاد ومضمونات، ص٢٠٣–٢٠٤.

(٩) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. كتاب البغال، ٢ /٣٠١.

(١٠) الحيوان، ٣٦٧/٦ – ٣٦٨ .

(١١) المصدر السابق، ٩/٣ ؛ ٣٤٦/٦ – ٣٤٧ ، ومعجم الأدباء، ٢١١٢/٥.

(١٢) د. محمد نبيه حجاب . الصراع الأدبي بين العرب والعجم . القاهرة ، المكتبة الثقافية ، سبتمبر ١٩٦٣ م ، ص ١٢٥ .

(١٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى (العصر العباسى الأول). مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٤٨م، ٢ / ١٠٢ – ١٠٣.

(١٤) البرصان والعرجان ، ص ٣٩٧ – ٣٩٨.

(١٥) البيان والتبيين، ١٠٢/٣–١٠٣.

(١٦) البرصان والعرجان ، ص ٣٩٩.

(١٧) الطبرى: تاريخ الطبرى (تاريخ الأمم والملوك). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، دار المعارف، ط٤، ١٩٧٩م، ١١/٩ .

(١٨) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. قدَّم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين. بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ٢٩٠/٢ .

(١٩) د. عبد المحسن عاطف سلام. الثورة البابكية فى الأدب العربي. دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م، ص ٩٢-٩٣.

(٢٠) المرجع السابق ص ٩٣.

(٢١) تاريخ الإسلام السياسى، ١٠٥/٢ .

(٢٢) البرصان والعرجان ، ص ٣٩٨ .

(٢٣) البخلاء ، ص ٥٢ .

(٢٤) الجاحظ: رسالة فى مناقب خلفاء بنى العباس. تحقيق د. محمد محمود الدروبى. الكويت، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الثانية والعشرون، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٧٢ .

(٢٥) المصدر السابق، ص ٧٢ .

(٢٦) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. من كتابه الأوطان والبلدان، ١٣٤/٤ - ١٣٥.

(٢٧) الحيوان، ٢٤٦/١.

(٢٨) الجاحظ: فصول مختارة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: حققها وقدم لها د. محمد محمود الدروبى. عمان، دار البشير، ط١، ٢٠٠٢م، ص٥٧، والحصرى القيروانى: زهر الآداب وثمر الألباب. تحقيق على محمد البجاوى. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبى وشركاه، لا.ت،٤٩٨/١، والنجوم الزاهرة، ١٨٠/٢، وابن تغرى بردى: مورد اللطافة فى من ولى السلطنة والخلافة. تحقيق ودراسة وتعليق د. نبيل محمد عبد العزيز أحمد. القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٩٧م، ١٣٤/١، والسيوطى: تاريخ الخلفاء. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. القاهرة، لا.ت، ص٢٨٦.

(٢٩) الحيوان، ٩٠/٦ - ٩١ .

(٣٠) الفهرست، ط. بيروت، دار المعرفة، ص ١٧٥، ٤٧٣ ، والعصر العباسى الأول، ص ٧٦، والعصر العباسى الثانى، ص ٩-١٠ ، والجذور التاريخية للشعوبية ، ص ٤٨-٤٩، ود. إبراهيم أحمد العدوى: المجتمع العربى ومناهضة الشعوبية. القاهرة، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها بالفجالة، ١٩٦١م، ص ٨١-٨٢ ، والشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي فى الحياة الإسلامية فى العصر العباسى الأول ، ص٢٧٦ - ٢٧٧ ، والشعوبية والأدب أبعاد مضمونات، ص٢٠٤ .

(٣١) انظر عن الأفشين ومحاكمته فى المصادر والمراجع التالية: تاريخ الطبرى، ٨٠/٩ -١١٤ ، والنجوم الزاهرة، ٢٩٥/٢-٢٩٦، ٣٠١، وأبو الفرج الأصفهانى: الأغانى. تحقيق نخبة من المحققين. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٥٠/٨ -٢٥١، ومحمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية فى السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية. القاهرة، دار الفكر العربى، لا.ت، ص ١٥١، والشعوبية وأثرها الاجتماعى والسياسى فى الحياة الإسلامية فى العصر العباسى الأول ، ص ١٤٩، ود. سميرة مختار الليثى: الزندقة والشعوبية وانتصار الإسلام والعروبة عليهما. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨م، ص ١٦٤، ومظاهر الشعوبية فى الأدب العربى، ص٣٧١ .

(٣٢) رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون . رسالة فى الجد والهزل، ٢٣٥/١ .

(٣٣) البيان والتبيين، ٥٨/٣.

(٣٤) الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٧٣، ونجاح محسن: الفكر السياسى عند المعتزلة. القاهرة، دار المعارف، ص ٢٢٦ - ٢٢٧، ود. على أبو ملحم: الفلسفة العربية مشكلات وحلول. بيروت، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص ٢٩.

(٣٥) رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون . من كتابه فى حجج النبوة، ٢٧٨/٣.

(٣٦) وفى تعريف الزندقة وعرض أنواعها انظر: أحمد أمين. ضحى الإسلام، ١٦١/١. وانظر فى تعريف الزندقة أيضاً: المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. بيروت، المكتبة الإسلامية، لا.ت،٢٥٠/١ - ٢٥١، ودائرة المعارف الإسلامية ، طبعة كتاب الشعب، مادة زندقة، لماسنيون، ٤٤٢/١.

والجاحظ حين يذكر الزنادقة فإنه يقصد بهم أولئك الذين يظهرون الإسلام ويبطنون غيره من الأديان. انظر: رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون . من كتابه فى الرد على النصارى، ٣ / ٣١٥ – ٣١٦ .

(٣٧) الحيوان، ٢٠٢/٧. وقد لاحظ ابن قتيبة أيضًا ارتباط الشعوبية بالزندقة، ولعله قد تأثر فى ذلك بالجاحظ.

انظر: ابن قتيبة: العرب أو الرد على الشعوبية. كتاب منشور ضمن رسائل البلغاء. جمع وتحقيق محمد كرد على. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٣، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م، ص٣٤٤.

(٣٨) البخلاء ، ص ٢٢٨ .

(٣٩) د. سعيد منصور : بحث بعنوان " أدب الجاحظ فى صلته بعصره "، منشور ضمن كتاب دراسات فى النثر العربى، ص ٣٠٣ .

(٤٠) البرصان والعرجان ، ص ١٣٠ .

(٤١) الحيوان، ٤٤٩/٤ – ٤٥٤.

(٤٢) المصدر السابق، ٤٥١/٤ .

(٤٣) المصدر السابق، ١٧٤/١ .

(٤٤) المصدر السابق، ٤٤٨/٤ .

(٤٥) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون . كتاب ذم أخلاق الكتاب، ٢٠٢/٢ – ٢٠٣ .

(٤٦) الفهرست ط . بيروت، دار المعرفة، ص ١٤٥.

(٤٧) النجوم الزاهرة، ٢٣٠/٢.

(٤٨) البيان والتبيين، ١٣٢/١.

(٤٩) المصدر السابق، ٣٤٧/١، وإذا ما راعينا أن خارجيًّا آخر هو أبو عبيدة كان يقف مع الهيثم بن عدى فى صف كبار الشعوبيين الذين يحاولون العبث بالتراث العربى والقيم والعادات العربية – انظر: رسائل البلغاء. كتاب العرب أو الرد على الشعوبية، ص ٣٤٧– ٣٥١ – كان لنا أن نزعم أن بعض الشعوبيين انتحلوا مذهب الخوارج الذي يدعو إلى الثورة على السلطة الحاكمة أموية كانت أو عباسية ، بغرض القضاء على النفوذ العربى ونشر دواعى الاضطراب فى الأمة .

(٥٠) الفهرست، ط. بيرووت، دار المعرفة، ص ١٤٥.

(٥١) انظر بعض نصوص من هذه الكتب فى الأغاني، ١٣/١ ، وشرح نهـج البلاغـة، ٦٨/١١.
(٥٢) نشرت هذه الصفحات مع كتاب البرصان والعرجان للجاحظ ، ص ٥٦٥ – ٥٧٠ .
(٥٣) البرصان والعرجان، ص ٣٠ – ٣١، وانظر أيضًا، ص ٣٤ .
(٥٤) رسائل الجاحظ: جمع د. على أبو ملحم . الرسائل السياسية . رسالة فى الحكمين ، ص ٣٩٤.
(٥٥) البخلاء، ص ٢٢٢.
(٥٦) البيان والتبيين، ٢٣٨/٢.
(٥٧) المصدر السابق، ٥٦/١ .
(٥٨) من هؤلاء الشعوبيين الذين ذكرت كتب التاريخ والأدب اتهامهم بالشعوبية وتـأليفهم كتبًا فى مثالب العرب عِلاّن الشعوبى، انظر عنه وعن شعوبيته ولاحـظ اتصـاله بالبرامكة فى الفهرست، ط. بيروت، دار المعرفة، ص ١٥٣ – ١٥٤، والصـفدى: الوافى بالوفيات. تحقيق نخبة من المحققين. الناشر دار فرانز شـتاينر بفيسـبادن، ٥٥٨/١٩ ، وبروكلمان: تاريخ الأدب العربى، ٣٥/٣، وأيضًا هشام بن الكلبى الذى اشتهر بمحاولاته لتدليس أنساب العرب انظر عنه: الأغاني، ١٣/٢٢، وحول كتبـه فى مثالبهم انظر: الفهرست ط. بيروت، دار المعرفة، ص ١٤٠– ١٤١. والجاحظ يكتفى بأن يذكر أنه وأبوه متهمان فى الراوية (رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون . كتاب البغال، ٢٢٥/٢)، وبروكلمان يرى أن رواياته فى مثالـب العـرب صحيحة ويصدقها البحث الحديث (تاريخ الأدب العربى، ٣١/٣)، ونحن نخالفـه فى هذا لأن كتبه فى المثالب كتبت بغرض التشويه لا عرض الحقائق، وهـذا مـا انتبه إليه مؤرخو العرب وفات بروكلمان الانتباه إليه.
وإذا كان الجاحظ قد أشار إلى انتشار الزندقة بين عدد كبير من الكتاب فإنه لم يذكر منهم إلا يونس بن أبى فروة وعددًا آخر قليلاً معه، وذلك ضمن رسـالته فـى ذم أخلاق الكتاب، ٢٠٢/٢– ٢٠٣.
ولم يذكر الجاحظ ابن المقفع على أنه ممن اشتهر بالشعوبية والزندقة علـى كثـرة تعرضه ونقده له فى كتبه مما يجعلنا نقول مع أستاذنا الـدكتور سـعيد منصـور: إن الاتهامات التى اتهم فيهـا ابـن المقفـع بالزندقـة تنقصـها الـدلائل القويـة. انظر د. سعيد منصور: بحث بعنوان: "إعادة بناء الفكر الدينى عنـد ابـن المقفـع

مفهوم الدين فى أدبيه الصغير والكبير"، منشور ضمن كتاب دراسات فـــى النثـــر العربى، ص ١٣٩-٢٠٦ .

(٥٩) أبو عبيدة معمر بن المثنى: العققـــة والبـــررة. منشـــور ضـــمن كتـــاب نـــوادر المخطوطات. تحقيق وتقديم عبد الســـلام هـــارون، بيـــروت، دار الجيـــل، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ٢/ ٣٥٨ .

(٦٠) رسائل البلغاء . كتاب العرب أو الرد على الشعوبية ، ص ٣٤٦ – ٣٥١ .

(٦١) انظر فى ذلك: الفهرست ط. بيـــروت، دار المعرفـــة، ص٧٩ – ٨٠ ، ومـــروج الذهب، ٣/٣٦، وزهر الآداب، ٥٧٧/١، وأبا الطيب عبد الواحد بن على اللغـــوى الحلبى: مراتب النحويين. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، مكتبة نهضـــة مصر ومطبعتها، لا.ت، ص ٤٥، وانظر أيضًا فى المؤلفات الحديثة التالية :
العصر العباسى الأول ، ص ١٢٠، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمـــان، ١٤٢/٢ – ١٤٣، ود. كاظم حطيط: مع ابن قتيبة فى مســـار الصـــراع العربـــى الشـــعوبى. بيروت، دار الهادى، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ٤٢ ، ومظاهر الشعوبية فـــى الأدب العربى، ص ٥٥٤، ٥٥٦، والشعوبية والأدب أبعاد ومضمونات، ص ٣٢٩، ودائرة المعارف الإسلامية، مادة أبى عبيـــدة، لأوبســـترب، ط. كتـــاب الشـــعب، ٣٧٦/١-٣٧٧.
أما تشكيك الدكتور طه الحاجري فى شعوبية أبى عبيدة فى مقالته عنه فـــى مجلـــة الكاتب المصرى مج ٢ عدد ٦ مارس ١٩٤٦، ص ٢٨٤ – ٢٨٦ وقوله عنه إنـــه من أهل التسوية لا من غلاه الشعوبيين الفرس الحاقدين على العرب، فيدفع ذلك ما عرضه ابن قتيبه من مظاهر شعوبيته التى تدل بجلاء على أحقاده علـــى العـــرب واتهامه لهم .

(٦٢) البيان والتبيين، ٣٤٧/١.

(٦٣) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. كتاب البغال، ٢٢٧/٢.

(٦٤) ومن ذلك انظر البيان والتبيين، ٢١٥/١ والحيوان، ٤٠٣/٣ ، ٤٤١.

(٦٥) البيان والتبيين، ١٨٨/١.

(٦٦) المصدر السابق، ٥٢/١، ٩٣، ورسائل الجاحظ. كتاب البغال، ٢٦١/٢ – ٢٦٢.

(٦٧) الدميرى: حياة الحيوان الكبرى. مكتبة ومطبعة مصطفى البـــابى الحلبـــى وأولاده بمصر، ط٥، ١٣٩٨هـــ/ ١٩٧٨م، ص ٤٩٢ ، والـــوافى بالوفيـــات، ١٨/١٦ ،

ومعجم الأدباء، ١٤٠٩/٣ ، والفهرست ط. بيروت، دار المسيرة، ص ١٣٣، وزهر الآداب، ٥٧٧/١، والعصر العباسى الأول، ص ٥٣٦، ومظاهر الشعوبية فى الأدب العربى ، ص ٤٢١ – ٤٢٢ ، والزندقة والشعوبية وانتصار الإسلام والعروبة عليهما، ص ٢٠٤.

(٦٨) البخلاء، ص ٩-١٦، وأبو الوفاء الخوارزمى: المناقب والمثالب . دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١، ١٩٩٩م ص٦١ .

(٦٩) الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسى فى العصر العباسي الأول، ص٣١٥، والفن ومذاهبه فى النثر العربى ، ص ١٤٩-١٥٠، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان، ٣٥/٣، والعصر العباسى الأول ، ص ٥٣٦، ود. محمد عبد الغنى الشيخ: النثر الفنى فى العصر العباسى الأول اتجاهاته وتطوره. الدار العربية للكتاب، ١٩٨٨م، ص ٢٦٩ ، والشعوبية والأدب أبعاد ومضمونات، ص ٢٦١.

(٧٠) الحيوان، ٣٧/٦.

(٧١) د. وديعة طه النجم : الجاحظ والنقد الأدبي. الكويت، حوليات كلية الآداب، الحولية العاشرة، الرسالة التاسعة والخمسون، ١٤٠٩هـ- ١٤١٠هـ/ ١٩٨٨م – ١٩٨٩م، ص٢٠، وضحى الإسلام، ٣٩٥/١ .

(٧٢) الحيوان، ٢٠٢/٧.

(٧٣) البيان والتبيين، ٢٤/٤ .

(٧٤) المصدر السابق، ٤٩/١.

(٧٥) المصدر السابق، ٢٧/١-٣٢، والشريف المرتضى: أمالى المرتضى، غرر الفوائد ودُرر القلائد. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابى الحلبى وشركاه، ١٣٨/١، وعبد الرحيم العباسى: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م، ٢٩٧/١. وحول إشارات الكتاب والمؤرخين والباحثين لشعوبية بشار وزندقته انظر: الأغاني، ١٣٨/٣ ، ١٣٩، ١٨٢-١٨٣، ١٨٥-١٨٦، ٢٠٤ ، ٢٠٧ – ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٢٧، ٢٤٨، والحصرى القيروانى: جمع الجواهر فى الملح والنوادر. حققه وطبعه وفصّل أبوابه ووضع فهارسه على محمد البجاوى. بيروت، دار الجيل، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ٣٤٤، وحديث الأربعاء، ٢ /١٩٢- ١٩٣، ود. محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربى فى

القرن الثانى الهجري. دار المعرفة الجامعية، ص ٤٣٦ ، وضحى الإسلام، ١٩٥/١، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان، ١٥/٢، والجذور التاريخية للشعوبية ، ص ٨٣ ، ودائرة المعارف الإسلامية، ط. كتاب الشعب، مادة بشار، ٦٤٨/٣.

(٧٦) البيان والتبيين، ٥٠/١، وانظر فى إشادة الجاحظ بشعر بشار: ابن عاصم الأندلسى: حدائق الأزاهر. تحقيق د. عفيف عبد الرحمن. بيروت، دار المسيرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص١٦٩، ومعاهد التنصيص، ٥١/١ .

(٧٧) البيان والتبيين، ٥١/١ .

(٧٨) انظر فى اتهام أبى نواس بالشعوبية المراجع الآتية: حيث الأربعاء، ٩٠/٢ ، ٩١، ١٠٢، ومظاهر الشعوبية فى الأدب العربى ، ص ٣٠٠، وتيارات ثقافية بين العرب والفرس، ص ١٥٥، والجذور التاريخية للشعوبية، ص٨٤، واتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى، ص٤٣٣، ٤٣٤، والشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسى فى الحياة الإسلامية فى العصر العباسى الأول، ص ١١١ ، ١١٤ ، والمجتمع العربى ومناهضته للشعوبية، ص٢٠٧، والشعوبية والأدب أبعاد ومضمونات، ص١١٨-١١٩، ٢٥٦ ، ٢٨٩-٣١٨، ود على شلق : أبو نواس بين التخطى والالتزام . بيروت، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م ، ص ٣٩٨، ٤٠١، ٥٢٥.

(٧٩) الحيوان، ٤٥٤/٤ – ٤٥٧ ، وبعد أن يعرض الجاحظ لأبياته هذه التى يشتم منها الكفر يقول: "ومع هذا فإنا لا نعرف بعض بشار أشعر منه " الحيوان، ٤٥٧/٤.

(٨٠) رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون. كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان، ١٠٦/٢ – ١١٣.

(٨١) الحيوان، ٢ / ٢٧ ، وانظر أيضًا فى استحسان الجاحظ لشعر أبى نواس: زهر الآداب، ٧٦٠/٢.

(٨٢) جمع الجواهر فى الملح والنوادر ، ص ٧٩ .

(٨٣) الحيوان، ٢ / ٢٠٨ – ٢٠٩ .



الفصل الثالث

العناصر الشعوبية واتهاماتها للعرب ورد الجاحظ عليها

ونقصد بالعناصر الشعوبية هنا الأجناس التى كانت تتعايش داخل الأمة الإسلامية فى العصر العباسى ، وكانت تبدو من أشخاص منهم ميول شعوبية فى العصبية للجنس الذى ينتسبون إليه ، وتقليل من شأن الأمة التى انخرطوا تحت لوائها وهى الأمة العربية .

وبقدر تنوع الأجناس وتعددها داخل المجتمع الإسلامى فى العصر العباسى تنوعت وتعددت ألوان الشعوبية؛ ولهذا فقد كان الشعوبيون أصنافًا مختلفة منهم زنج ومنهم فرس ومنهم نبط، وقد صبغت شعوبية كل صنف من هؤلاء بصبغة خاصة [١].

وقد تناول الجاحظ هذه الألوان الشعوبية المختلفة بالدراسة فى مؤلفاته، ووضح أهم المعالم الظاهرة فيها، وطريقة الانحراف الشعوبى والاتهامات التى وجهوها للعرب والإسلام ، والخصال التى افتخروا بها على سائر الأمم.

شعوبية السودان

والجاحظ يقصد بالسودان أساسًا الزنج ومن إليهم من أهل النوبة والحبشة، وقد عقد كتابه فخر السودان على البيضان من أجلهم. أما أهل الهند والسند وسكان جزائر البحر الجنوبى، كسرنديب وزابج، ثم بعض القبائل العربية التى غلب السواد عليها كبنى سليم بن منصور ومن إليهم من أهل الحرة، فيطلق عليهم أيضًا السودان لمشاركة الأولين فى سواد البشرة[٢].

وبتتبع كتاب الجاحظ فى فخر السودان على البيضان يتضح بجلاء أن الجاحظ قصد إظهار جوانب شعوبية الزنج ومن إليهم من أهل النوبة والحبشة، وأما استشهاده على السودان ببعض الأمم الأخرى كالسند وبعض قبائل العرب على أنها من السودان، فليس ذلك إلا من الحجج التى يستند إليها

سودان الحبش والزنج للدلالة على انتشار اللون الأسود فــى أغلــب ســكان الأرض، وأن السواد ليس قاصرًا فيهم.

كما يؤكد أن قصد الجاحظ فى كتابه هذا إظهــار عصــبية ســودان الحبش والزنج دون غيرهم من الأمم، ما سنراه عند تحليلنــا لكتابــه فخــر السودان على البيضان من تحامل الشعراء ذوى الأصول الحبشية على كــل العرب دون استثناء، وتفاخرهم بأصولهم الحبشية، وتعييرهم كل العرب بمــا كان لملوكهم معهم فى الجاهلية من حروب ومواقف رأوا أنها تدل على قوتهم وعزتهم على العرب وقتذاك.

ولا شك أن الدافع الأقوى لتأليف الجاحظ كتابه فخر الســودان علــى البيضان هو ما كان يراه للزنج من الخطر فى الحياة الاجتماعية العباســية[٣]، وقد أعقب وفاته بقليل نشوب ثورتهم التى دمرت الكثير من البلاد وهلك فيها عدد كبير من العباد[٤].

على أنه يمكن أن يكون من أسباب تأليف الجاحظ لكتاب يتحدث فيــه باسم الحبش والزنج ، ويعدد فيه مآثرهم – رغبة الجاحظ فى تنبيه مجتمعــه لما لهؤلاء القوم من صفات عالية ومزايا سامية شأنهم شأن الأجناس الأخرى التى يتكون منها مجتمعه والمشهود لها بالكفاءة والرفعة، وبهذا ينصرف عن الناس شعور الاحتقار الذى يجده كثير منهم فى النظر لهؤلاء القوم ، وبهــذا يصبح كتاب الجاحظ عن فخر السودان على البيضان خطوة فى محاولة دمج عناصر الأمة بعضها ببعض شأن رسالته فى مناقب الترك، من خلال ذكــر مزايا كل أمة، وإشعار الأمم كلها التى يتكون منها المجتمع الإسلامي بما فيها الزنج – أنهم شرفاء ولهم قدر ومكانة، ومن ثم يجب اتحادهم وصهر بعضهم ببعض، يقول فى ذلك الدكتور محمد توفيق حسين: "فالجاحظ إنما أكــد لهــذه الأجيال التى تكاد لا تحصى من أبناء البشر السود كرامتهم الإنســانية بنشــر شىء من مناقبهم وفضائلهم .

وكل ماعدا هذا فى هذا الكتاب الصغير، قليل هين بالقياس إلى هـــذا الهدف الإنسانى الكريم"[٥].

كما يردد الدكتور على أبو ملحم ما ذكره الدكتور محمد توفيق حسين نفسه فى أسباب تأليف الجاحظ مثل هذه الكتب عن أجناس الأمـــة الإســـلامية فى عصره ، وذلك فى قوله: إن كتاب فخر السودان على البيضان "ينطـــوى مع كتاب مناقب الترك فى الغاية التى يرمى إليها الجاحظ وهى التسوية بـــين العرب وسائر الشعوب التى تشتمل عليها الدولة العباســـية والتقريـــب بينهـــا واستئصال الأحقاد من قلوب أبنائها، لتستطيع العيش بوئام وسلام. وهذه هـــى القاعدة التى تقوم عليها سياسة بنى العباس والتى يؤيدها الجاحظ"[٦].

وإذا كنت أتفق مع مضمون ما يقوله الدكتور محمد توفيـــق حســـين والدكتور على أبو ملحم حول أهداف الجاحظ من كتبه فـــى أجنـــاس الأمـــة الإسلامية – إلا أننى أرى أن حرص الجاحظ على إيضـــاح وجهـــه نظـــره فى العمل على جمع كلمة الأمة ووحدة أبناء عناصرها المختلفة كـــان أشـــد وأقوى فى بعض كتبه ورسائله كرسالته فى مناقب الترك عنه فى كتابه فخـــر السودان على البيضان؛ وذلك لأن الجاحظ لم يذكر فى رسالته مناقب التـــرك عند حديثه عن فضائل الأجناس المختلفة التى توجد فى مجتمعه ويتكون منها الجيش – أى عبارات تدل على انتقاص جنس لآخر، أو نيـــل عنصـــر مـــن عنصر آخر إلا القليل، وتأتى الرسالة فى مجملها فيها إشادة بكل أجناس الأمة بغرض العمل على ألفتها ووحدتها[٧].

أما الأمر فى كتاب فخر السودان على البيضان فلم يتوقف على ذكر الجاحظ فيه لمزايا الزنج ومآثرهم، وإنما ذكر أيضًا فيه على لسانهم جوانـــب من هجومهم على العرب، ومقارناتهم بين ما انتقصوه على العرب بما يرونه عندهم من فضائل وأمجاد، ذهابًا مع الاتجاه الشعوبى الفارســـى الـــذى كـــان طاغيًا على سائر الشعوبيات فى العصر العباسى الأول.

ولعل عدم عرض الجاحظ فى رسالته مناقب الترك أى ذكر لانتقادات بعض أجناس الأمة على بعضها الآخر – إلا القليل – يعـود إلـى الظـرف السياسى الذى كتب الجاحظ فيه هذه الرسالة، فقد طلب منه الفتح بن خاقـان كتابتها كما يفهم من مقدمتها تهدأة للشغب الناشئ بين أجناس الجيش والتـرك خاصة لكونهم العنصر الجديد الذى زاد عدده فى الجيش، وبدأ يصـبح لـه كيان كبير فى الدولة على حساب المكانة التى كان يتبوأها أبنـاء الأجنـاس الأخرى كالعرب والفرس خاصة.

ولكن كتاب فخر السودان ترك الجاحظ فيه نفسه على طريقتـه فـى عرض مفاخرات الأجناس وهجومهما على غيرها؛ لأن الظـرف السياسـى وقتها لم يكن بخطورة الأحداث نفسها التى صاحبت تأليف الجـاحظ رسـالته فى مناقب الترك ممثله فى الاضطرابات التى حدثت بين صـفوف الجـيش وخشى من تصاعدها وتزايدها، كما أن ثورة الزنج لم تكن قد أعلنـت عـن نفسها بعد، وكل ما فى الأمر أن الجـاحظ يرصـد نشـاط هـذه الجماعـة وما أصبح لها من الخطر، وينبه المجتمع إلى ضرورة إدراك هـذا الأمـر، ثم إنه ليس مما يضر أن يذكر الجاحظ ما عند أبناء هذه الجماعة من ميـول شعوبية وأبعاد هذه الميول وحيثياتها.

ثم إننا لا نستبعد أيضًا أن يكون من ضمن ما دفع الجـاحظ لكتابـة كتاب فخر السودان على البيضان إلى جانب العوامل السياسية التى ذكرناهـا – دوافع أخرى شخصية تتركز فى إشادة الجاحظ بمن ترجع أصوله إلـيهم، إن صح أن الجاحظ كان من أصول حبشية على حد زعم بعض الباحثين[٨].

وتبدو مظاهر الشعوبية الزنجية فى هذا الكتاب من خـلال عـرض الجاحظ بعض القصائد التى كتبها شعراء من أصول زنجيـة فـى العصـر الأموى يفخرون فيها على العرب بأمجادهم، ويُعرِّضون بما أصاب العـرب من هزائم من قبلهم فى العصر الجاهلى.

ومن هؤلاء الشعراء الزنوج الحيقطان الذى يقول الجاحظ عنه: "وأما الحيقطان فقال قصيدة تحتج بها اليمانية على قريش ومضر، ويحتج بها العجم والحبش على العرب، وكان جرير رآه يوم عيد في قميص أبيض وهو أسود فقال:

كأنه لما بدا للناس ... (*) حمار لف فى قرطاس

فلما سمع بذلك الحيقطان وكان باليمامة، دخل إلى منزله فقال هذا الشعر"[٩].

ثم يأخذ الجاحظ فى عرض أبيات الحيقطان فى فخره بنفسه وقومه الحبش ، ومن هذه الأبيات قوله :

لئن كنت جعد الرأس والجلد فاحم ... فإنى لسبط الكف والعرض أزهر

وإن سواد اللون ليس بضائرى ... إذا كنت يوم الروع بالسيف أخطر[١٠]

وإلى هنا يبدو الأمر كأنه هجاء شخصي بين جرير والحيقطان ، ومن حق الحيقطان أن يدافع عن نفسه أمام استصغار جرير شأنه. وأما الشي الذى انساق إليه الحيقطان ونؤاخذه عليه، فهو تهجمه على العرب وهجاؤه لهم، وفخره بالنجاشي الذى غزاهم وانخذلوا عنه، فتركوا مكة حين دخلها راغبًا فى هدم الكعبة، وقد صده الله عنها، أما أهلها فقد كانوا مستسلمين لمصيرهم أمام جيش أبرهة الكبير. يقول فى ذلك الحيقطان:

فإن كنت تبغى الفخر فى غير كنهه ... فرهط النجاشي منك فى الناس أفخر

غزاكم أبو يكسوم فى أم داركم ... وأنتم كقبض الرمل أو هو أكثر

وأنتم كطير الماء لما هوى له ... ببلقعة ، حجن المخالب أكدر

فلو كان غير الله رام دفاعه ... علمت وذو التجريب بالناس أخبر[١١]

(*) كلمة أسقطناها.

وتدهشنا تلك الجرأة من الحيقطان فى فخره بقومه الحبش، وتصعيد هجومه على العرب، ونحن مازلنا فى العصر الأموي الذى شاع عنه بين كثير من الباحثين(١٢) أن صوت الشعوبية فيه كان خافتًا بسبب أن الدولة الأموية كانت بالمرصاد لكل العناصر الأخرى – غير العربية – التى تحاول أن تظهر شيئًا من مكانتها.

ولعل ما يعرضه الجاحظ فى كتابه فخر السودان على البيضان من قصائد شعرية للحيقطان وأمثاله من الشعراء الزنوج فى العصر الأموي يجعلنا لا نتفق – إلى حد ما – مع هذه الأحكام عن خفوت صوت الموالى فى العصر الأموي ، وأن قبضة الدولة الأموية كانت مانعة من انفجار أى تيار شعوبى فيها.

فها هو ذا الحيقطان قد تجاوز كل الحدود فى تهجمه على العرب، ونرى فى باقى أبياته وأبيات غيره من شعراء الزنج، وشرح الجاحظ لها إلى أى مدى كانت الشعوبية الحبشية نشطة فى ذلك العصر، فهذا الشاعر وأمثاله يعبرون عما يداخل الزنج والحبش من إحساس بالفخر، ويدل شعرهم على ما يتناقله الحبش والزنج من موازنات بين الأمة التى ينتمون إليها بالنسب وبين الأمة التى ينتمون إليها سياسيًّا.

كما نجد فى جرأة الشعراء السودان ذوى الأصول الحبشية فى الاعتزاز بنسبهم والتهجم على العرب ما يدل على أن الشعوبية الزنجية كانت أسبق فى ظهور معالمها من سائر الشعوبيات الأخرى كالشعوبية الفارسية والشعوبية النبطية.

وأسباب هذا عندي أن عددًا كبيرًا من سودان الحبش قد استقر بين العرب منذ العصر الجاهلى نتيجة جلبهم ضمن الجيوش التى غزت اليمن، و حاولت غزو الكعبة وهدمها، وقد سمى هؤلاء الأبناء .

وقد تعلم هؤلاء الأبناء اللغة العربية، ونشأ أبناؤهم فى البيئة العربية، واكتسبوا اللغة العربية ومهارة التعبير بها، وكان منهم -فى العصر الأموي- شعراء كالحيقطان، لم يجدوا صعوبة فى قول الشعر فى ذكر فخرهم وتهجمهم على العرب .

أما الفرس، فقد كانوا – بعد فتح بلادهم خلال عصر صدر الإسلام والعصر الأموي – فى حاجة إلى مزيد من الوقت حتى يمهروا فى العربية، وينشأ أجيال منهم يتقنونها ويكتبون فيها شعرًا يعبر عن اعتزازهم بأمتهم الفارسية التى ينتمون إليها، ويظهرون ما بقلوبهم من أحقاد على العرب.

إلى جانب أن صدمة الفتوحات وقوة الفاتحين قد ألجمت الفرس – وهم أمة عريقة – عن إخراج ما بداخلها من نفثات شعوبية حتى كان لهم ما أرادوا فى العصر العباسى حين ظهر من بينهم شعراء يتقنون العربية، وسمح لهم باحتياز المناصب الكبيرة فى الدولة والتى تمكنهم من رعاية الشعراء والأدباء ذوى الميول الشعوبية الفارسية.

والشيء الآخر الذى يلفت الانتباه فى كتاب فخر السودان على البيضان أن الجاحظ يشرح فيه القصائد التى يعبر فيها شعراء الزنج عن عصبيتهم وشعوبيتهم، ومن ذلك شرح الجاحظ لأبيات الحيقطان[١٣].

وشرح الجاحظ لأبيات الحيقطان وسنيح الشاعرين اللذين ينتميان لأصول حبشية فى الفخر بقومهما وهجومهما على العرب تعليله أن الجاحظ أراد أن يوضح ما فى شعرهما من ذكر رموز وحوادث يرى ضرورة شرحها حتى لا يستعصى على القارئ فهمها، إلى جانب أن الشعوبية الزنجية لم تتعدد فى عصره فيها المؤلفات من قبل من ينتمون إليها – خلاف الشعوبية الفارسية – وقد رأى أن يبسط أبعاد هجومها على العرب بشرحه لهذه القصائد؛ حتى يتسنى له ولأمثاله من حماة العروبة مواجهتهم ورد اتهاماتهم للعرب، إن لم يكن فى هذا الكتاب الذى كتب بلسانهم ، ففى كتب أخرى.

وبعد أن ذكر الجاحظ قصيدتى الحيقطان وسنيح وشرحهما وأبرز ما فيهما من شعوبية يعلو صوتها فى قصيدة الحيقطان، ويظهر هــذا الصــوت كالمستخفي فى قصيدة سنيح – ولكنه استخفاء لا يخفى على أهل النظر(١٤)–، بعد هذا يذكر الجاحظ حججًا أخرى يستند إليها سودان الزنج فى ادعائهم أنهم أفضل الأجناس وخير الناس، ومن ذلك: "قالوا: ونحن قد ملكنا بلاد العــرب من لدن الحبشة إلى مكة، وجرت أحكامنا فى ذلك أجمع وهزمنــا ذا نــواس، وقتلنا أقيال حمير وأنتم (*) لم تملكوا بلادنا" (١٥).

وها نحن نرى أن الحبش يستندون فى تفضيلهم أنفسهم على العــرب بصفحة التاريخ فى العصر الجاهلى، ومقارنه أحوالهم بأحوال العرب وقتهــا – شأن الشعوبية الفارسية – وقد فات شعوبي الحبش كما فات غيــرهم مــن الشعوبيات وقتئذ أن العرب فى الجاهلية لم يكونوا أمة مجتمعة تحت حكومــة واحدة، وقد كانوا فى مستوى بعيد عن الحضارة والعمران؛ ولــذا لا يصــح مقارنة حالهم فى الجاهلية بحال الأمم التى وصلت إلى درجة من الحضـــارة وتكوين الدولة بهيئاتها السياسية والعسكرية والاجتماعية.

ويعرض الجاحظ اتهامًا آخر للعرب من قبل الشعوبية الزنجية، وهــو يتعلق بمسألة نكاح أبناء الزنج من نساء العرب، فيقول الجاحظ: "وقد قالــت الزنج للعرب: من جهلكم أنكم رأيتمونا لكم أكفاء فى الجاهلية فى نسائكم، فلما جاء عدل الإسلام رأيتم ذلك فاسدًا، وما بنا الرغبة عنكم مع أن الباديــة مِنَّــا ملأى ممن قد تزوج ورأس وساد، ومنع الزمار، وكَنَفَكُم العدو"(١٦).

ولا شك أن اعتراض الزنج هنا فى رفض كثير مــن العــرب بعــد الإسلام أن يزوجوا بناتهم وأخواتهم من أبناء الزنج – له ما يبرره، فالإســلام قد سوى بين كل الناس، وجعل أفضل الناس أتقاهم لا أعزهم نسبًا وأكثــرهم

(*) يقصد العرب.

حسبًا، ولا شك أن عصر بنى أمية الذى فجَّر العصبيات والعنصريات كـان من نتائجه مثل هذه الانحرافات عن نهج الإسلام ، مما أعطى للعناصر التى كان يتكون منها المجتمع الإسلامى وقتذاك الحافز لإظهار شعوبيتها على العرب، والإسلام أيضًا.

ويستمر الجاحظ فى عرض حجج الزنج فى زعمهم بأنهم أفضل من العرب، فيقول بلسانهم موجهين كلامهم للعرب: "وقد ضربتم بنا الأمثال وعظمتم أمر ملوكنا، وقدمتموهم فى كثير من المواضع على ملوككم ، ولو لم تروا الفضل لنا فى ذلك عليكم لما فعلتم"(١٧).

ولاشك أن الجاحظ يقصد بهذا ما جاء فى الشعر العربى من ذكر ملوك الحبش وشجاعتهم وبطولتهم.

وتتوالى فى هذا الكتاب الحجج التى يذكرها الجاحظ على لسان السودان لإظهار مفاخرهم التى يتباهون بها على سائر الأمم ومنها العرب.

ولعل من خير ما جاء فى هذا الكتاب فى الدفاع عن الزنج ما ذكره الجاحظ على لسانهم فى تعليلهم لنفي تهمة الغباء والجهل عنهم التى وصفوا بها كثيرًا ظلمًا وعدوانًا. إلى جانب دفاعهم عن أنفسهم فى أنهم لم يصبهم السواد تشويهًا أو مسخًا أو عقوبة، ولكنه أصابهم بسبب البيئة التى يعيشون فيها وعوامل المناخ والقرب من الشمس، وما دام الأمر كذلك فلا يجب تعييرهم بهذا السواد(١٨).

ولو أن حجج السودان كلها كانت من هذا القبيل الأخير الذى ذكرناه لما أنكر عليهم هذا أحد، أو اتهمهم بالشعوبية، ولكن مزجهم هذه الحجج الإيجابية بالاتهامات للعرب والمفاخرة عليهم يثبت تورطهم فى الشعوبية فى ذلك العصر، وقد جمع الجاحظ فى كتابه عنهم هذين الجانبين: جانب ما يحتجون به من مزايا وفضائل، وجانب ما يرمون به العرب من مثالب؛ ليكون وصفًا صادقًا لمجالات نشاط الزنج المختلفة فى عصره، ذلك النشاط

الذى ما لبث أن انفجر على هيئة ثورة هى ثورة الزنج التى أتعبت الدولة العباسية كثيرًا حتى قضت الدولة العباسية عليها.

الشعوبية الفارسية

إذا ما كانت الشعوبية الزنجية تمثل أول ظهور للعناصر الشعوبية فى الأمة الإسلامية[١٩]، فإن الشعوبية الفارسية هى أقوى شعوبية ظهرت فى العالم الإسلامي[٢٠]، من حيث كثرة عدد المنتمين إليها والعاملين على تصعيدها فى كل المجالات السياسية والدينية والاجتماعية والأدبية. إلى جانب أن آثارها فى المجتمع كانت واضحة، ونشاط المنتمين إليها كان ملموسًا، ولعل السبب فى هذا يعود إلى ما كان للفرس من ملك سابق "أورثهم مطامع وآمالاً، ولعظم سلطانهم بنصرتهم العباسيين، ولأن مكان الاصطدام وهو العراق كان قريبًا منهم، مزدحمًا بهم، متأثرًا بنفوذهم قبل الإسلام وبعده"[٢١]، إلى جانب أن الفرس لم يعهدوا قبل فتح العرب لبلادهم أن يخضعوا لغيرهم من الأمم، مما جعل إحساسهم بملك العرب لهم ولبلادهم ينقلب إلى مظاهر حقد مكتوم، ثم انفجر من خلال بركان شعوبيتهم ضد العرب[٢٢]، يضاف لهذا أن الشعوبية الفارسية كانت تستمد سمومها من الأديان القومية التى كانت للفرس وهى الزرادشتية والمزدكية والمانوية، وبذلك امتزج هجوم دعاتها بالتهجم على العرب وعلى الدين الإسلامى معًا[٢٣].

وبسبب هذا الخطر الكبير الذى كانت تمثله الشعوبية الفارسية فإن الجاحظ قد وقف لها بالمرصاد فى كل الميادين والمجالات التى حاولت فيها أن تطعن فى العرب والإسلام، وأخذت حصون الشعوبية تسقط حصنًا بعد آخر مع مواجهه الجاحظ لها ودحضه لمزاعمها حتى انتصر للعروبة والإسلام، وأصبح ما بقى من صفحاته فى مواجهه الشعوبية لسان بيان لما

تعرضت له الأمة فى هذه الأعصر المجيدة من محن، ولكن رجالاً كالجـــاحظ ثَبَّتوا أعمدة ملكها ونهضتها ، وكانوا للحاقدين عليها سوط عذاب.

على أن الجاحظ مع هجومه الشديد على الشعوبية الفارسية لم ينس ما للفرس من أفضال ومزايا ، وهو يذكر هذه الأفضال والمزايا حين يبتعد شبح الشعوبية الفارسية(٢٤)، ومن ذلك قوله: " فهؤلاء ملوك فـــارس نزلـــوا علـــى شاطئ الدجلة، من دون الصراة (*) إلى فوق بغداد، فى القصور والبســاتين، وكانوا أصحاب نظر وفكر، واستخراج واستنباط من لدن أزدشير بـــن بابـــك إلى فيروز بن يزدرجرد" (٢٥).

مواجهة الجاحظ لتيار الشعوبية الفارسي فى كتاب العصا

كانت أكبر معارك الجاحظ التى خاضها ضـــد الشـــعوبية الفارســـية – فيما يظن – تلك التى دارت حول العصا فى الجزء الثالث من كتاب البيان والتبيين ، وقد جر الحديث عن العصا ذكر كثير مما انتقصته الشعوبية مـــن عادات العرب فى الخطابة والحرب ، وحاولت أن تستخدم هـــذه الاتهامـــات حول العصا وسيلة للبطش بهم وبعاداتهم ، ولكن الجاحظ استطاع أن يبـــرئ ساحة العرب من كل اتهامات الشعوبية ويجعل العصا فى الوقـــت نفســـه أداة لتأديبهم جزاء وفاقًا لما مزجوه بها من اتهامات للعرب .

ونجده فى الجزء الأول يشير لنيته فى تناول هذا الموضوع ،وذلـــك فى قوله: "وقد طعنت الشعوبية على أخذ العرب فى خطبها المخصرة والقنـــاة والقضيب، والاتكاء على القوس، والحد فى الأرض، والإشـــارة بالقضـــيب، بكلام مستكره سنذكره فى الجزء الثانى إن شاء الله"(٢٦).

(*) هما نهران ببغداد.

كما يصرح فى الجزء الثانى من الكتاب بأنه راغب فى تناول الموضوع، ولكن انشغاله بذكر كلام النبى ﷺ والصحابة والتابعين(٢٧) يجعله يؤجله إلى الجزء الثالث.

ويبدأ الجاحظ مع أول صفحة فى الجزء الثالث فى عرض طعنات الشعوبية على العرب المتعلقة بالعصا ،والقضايا التى يجادل الجاحظ فيها الشعوبية هنا مهما تعددت فهى فى النهاية – على حد قول الدكتور سعيد منصور: – " قضية العصا .. انحرفت بها الشعوبية عن استخدامها فى الخطابة إلى استخدامها فى القتال ، ثم سارت فى طريقها بكل ما رأته متصلاً بها من مطاعن، مما واجهه الجاحظ بردوده" (٢٨).

والشعوبية فى هجومها على العصا فى كل المجالات التى ربطت هجومها على العرب بها، لم تقصد من ذلك إلا أصحاب العصا أنفسهم (٢٩).

وجدال الجاحظ مع الشعوبية حول العصا يُرَى أنه مر خلال ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى يذكر فيها طعنات الشعوبية فى العرب المتعلقة بالعصا ، وفى المرحلة الثانية يرد على هذه الهجمات ، ثم ينتهي من ذلك إلى المرحلة الثالثة وتمثل الهجوم على الشعوبية فى عقر دارها وهدم أصولها التى تستند إليها(٣٠) .

وفى المرحلة الأولى يذكر الجاحظ مطاعن الشعوبية على العرب فى حمل العصا عند ألوان الفنون القولية المتعددة لهم ، والتي يمكن إرجاعها إلى أصلين هما الخطابة والشعر، يقول الجاحظ فى ذلك: " نبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية وبمطاعنهم على خطباء العرب: بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام ومساجلة الخصوم بالموزون المقفّى والمنثور الذى لم يقف، وبالأرجاز عند المتح، وعند مجاثاة الخصم، وساعة المشاولة، وفى نفس المجادلة والمحاورة. وكذلك الأسجاع عند المناظرة

والمنافرة، واستعمال المنثور فى خطب الحمالة وفى مقامات الصلح وسل السخيمة، والقول عند المعاقدة والمعاهدة ، وترك اللفظ يجرى على سجيته وعلى سلامته، حتى يخرج على غير صنعة ولا اجتلاب تأليف ولا التماس قافية، ولا تكلف لوزن"(٣١).

ولا يخفى أن الجاحظ مع عرضه لاتهام الشعوبية للعرب فى الفقرة السابقة فى اعتمادهم على العصا عند خطابتهم وإنشادهم الشعر – قد أراد أن يظهر فى الوقت نفسه فنون العرب القولية المتعددة، فى الشعر والخطابة، وهذا التنوع والغزارة فيها يدل ابتداء على تفوقهم فى مجال البلاغة والخطابة والشعر، فهذه الأمة التى لم تترك موقفًا فى حياتها إلا وقرنته بفن من فنون الخطابة أو الشعر، هى أمة بليغة بلاشك، فهم يخطبون عند مساجلة الخصوم، ويرتجزون عند المتح من الآبار، ويسجعون فى المفاخرات والمنافرات، كما يستخدمون الخطابة للصلح بين المتخاصمين، وعند عقد المعاهدات، مع توفر البلاغة والارتجال فى كل هذه الفنون القولية.

وبهذا العرض القوى من الجاحظ لفنون العرب القولية يصبح المتهجم عليهم أحمق لا ينظر لهذا التفوق وذلك النبوغ، ولكنه لا يشغله إلا العصا، يقول: " قالت الشعوبية ومن يتعصب للعجمية القضيب للإيقاع، والقناة للبقار، والعصا للقتال، والقوس للرمى.

وليس بين الكلام وبين العصا سبب، ولا بينه وبين القوس نسب، وهما إلى أن يشغلا العقل ويصرفا الخواطر، ويعترضا على الذهن أشبه، وليس فى حملهما ما يشحذ الذهن، ولا فى الإشارة بهما ما يجلب اللفظ. وقد زعم أصحاب الغناء أن المغنى إذا ضرب على غنائه قَصَّر عن المغنى الذى لا يضرب على غنائه. وحمل العصا بأخلاق الفَدَّادِين أشبه، وهو بجفاء العرب وعنجهية أهل البدو ، ومزاولة إقامة الإبل على الطرق أشكل وبه أشبه" (٣٢).

ولا يخفى من الفقرة السابقة كيف أن الشعوبية تأبى إلا أن ترد العرب دائمًا إلى الجزيرة التى جاءوا منها، وإلى حياة البادية التى كانوا يعيشونها قبل الفتوحات الإسلامية، وهذه العودة هنا من خلال وصفها للعرب بأنهم مازالوا على الرغم من تحضر البلدان التى يعيشون فيها يصطحبون عاداتهم التى رافقتهم فى جاهليتهم وصحرائهم، فهم بذلك يتأبون على الحضارة، ولا يعرفون إلا حياة البادية والصحراء، فأولى بهم لذلك أن يعودوا للصحراء التى جاءوا منها ويتركوا المدن لمن يعرف أصول التحضر والعمران.

ويالها من حجج قوية وسموم خبيثة يسوقها الجاحظ على لسان الشعوبية فى اعتراضهم على استخدام العرب العصا والقوس خلال خطابتهم، وهذا العرض القوى من الجاحظ لحجج الشعوبية سببه أن الجاحظ يريد أن يفرغ كل ما عندهم من حجج وأدلة " دفعًا منه لموقعهم إلى مراكز القوة والطعن حتى تستنفد طاقتهم – قبل أن يقف إزاءها شدًّا وجذبًا حتى يصل بها إلى حد الاستنزاف"(٣٣).

وبعد أن سخرت الشعوبية من استخدام العرب العصا والقسى عند خطابتهم تأخذ فى التهوين من شأن خطابة العرب، من خلال ذكر أن الأمم كلها تعرف الخطابة حتى الزنج المشهورين بالغباوة وغلظ الحس عندهم خطابة، وبذلك لا يصبح للعرب أى ميزة فى هذا الأمر الذى ساوتهم الأمم كلها فيه، بل إن الفرس فى رأى الشعوبية هم أخطب الناس، يقول الجاحظ فى ذلك: "قالوا: والخطابة شىء فى جميع الأمم، وبكل الأجيال إليه أعظم الحاجة، حتى إن الزنج مع الغثارة، ومع فرط الغباوة، ومع كلال الحد وغلظ الحس وفساد المزاج، لتطيل الخطب، وتفوق فى ذلك جميع العجم، وإن كانت معانيها أجفى وأغلظ، وألفاظها أخطل وأجهل. وقد علمنا أن أخطب الناس الفرس، وأخطب الفرس أهل فارس، وأعذبهم كلامًا وأسهلهم مخرجًا

وأحسنهم دلاًّ وأشدهم فيه تحكمًا، أهل مرو، وأفصحهم بالفارسية الدرية، وباللغة الفهلوية، أهل قصبة الأهواز. فأما نغمة الهرابذة ولغة والموابذة، فلصاحب تفسير الزمزمة"(٣٤).

ولم ينس شعوبيو الفرس أن يمزجوا تمكنهم فى الخطابة بأديانهم المجوسية من خلال ذكر القائمين بها من هرابذة وموابذة الذين كانت لهم طريقة خاصة فى الكلام والتعبير.

ولا يخفى أن هذا الربط بين تيار الشعوبية وتيار المجوسية يدل على أن المصب لكليهما هو الزندقة.

وبعد أن قلل الشعوبيون من شأن خطابة العرب، ورفعوا من قدر خطابة الفرس يجدون أنفسهم قد ثبتوا أقدامهم بشكل قوى على أرض المعركة، فيذكرون المؤلفات الفارسية التى ينصح بها لمن يحب أن يبلغ فى صناعة البلاغة، كما ينصحون من يرغب فى قراءة الكتب التى تنمى العقل، وفيها علم بالمراتب والعبر والمثلات بالرجوع إلى كتبهم الفارسية. ولكن هذه الكتب ليست سوى كتابين، أما الكتاب الأول الذى ينصح به لطالب البلاغة فهو كتاب كاروند، وأما الكتاب الثانى الذى ينصح به للراغب فى معرفة العبر والمثلات فهو كتاب سير الملوك.

وتنتهى الشعوبية من كل ذلك إلى هذه النتيجة: "فمن قرأ هذه الكتب، وعرف غور تلك العقول، وغرائب تلك الحكم، عرف أين البيان والبلاغة، وأين تكاملت تلك الصناعة، فكيف سقط على جميع الأمم من المعروفين بتدقيق المعانى، وتخير الألفاظ وتمييز الأمور، أن يشيروا بالقناة والعصى، والقضبان والقسى. كلا ولكنكم كنتم رعاة بين الإبل والغنم فحملتم القنا فى الحضر بفضل عادتكم لحملها فى السفر، وحملتموها فى المدر بفضل عادتكم لحملها فى الوبر، وحملتموها فى السلم بفضل عادتكم لحملها فى الحرب،

ولطول اعتيادكم لمخاطبة الإبل، جفا كلامكم، وغلظت مخارج أصواتكم ، حتى كأنكم إذا كلمتم الجلساء إنما تخاطبون الصمان"[٣٥] .

وتعود الشعوبية للعصا مرة أخرى لتُصَعِّدَ من دائرة الاتهامات ، وتتضح أكثر نوازع كراهيتهم للعرب ، فيرددون نغمتهم المفضلة فى جرأة بأن العرب ليسوا إلا بدوًا لا يعرفون لغة التحضر ولا أساليب العمران، وما زالت الصحراء وقيمها هى التى تحرك تصرفاتهم[٣٦].

وتطعن الشعوبية فى أدوات القتال عند العرب فى الجاهلية كرماحهم التى كانت من مُرَّان، وأسنتهم التى كانت من قرون البقر، كما تطعن فى ركوبهم الخيل فى الحرب أعراء، وأنهم لم يعرفوا الركاب، وكذلك يطعنونهم بأنهم لم يعرفوا المطارد وهى الرماح القصيرة التى يستخدمها الفرسان على خيولهم[٣٧].

كما يذكر الجاحظ مآخذ الشعوبية على العرب فى طريقة استخدام القنا خلال القتال[٣٨]، ويعيبون عليهم أنهم يتساندون فى الحرب، مع العلم أن الشركة مرفوضه فى ثلاثة أشياء: فى الملك والحرب والزوجة [٣٩].

ثم يُتهم العرب بأنهم لا يعرفون القتال فى الليل، ولا يعرفون الكمين ولا تقسيمات الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب وجناح وساقة وطليعة، ولا وسائل القتال المتقدمة وقتذاك كالمجانيق والدبابات والخنادق[٤٠].

ويتهمونهم بأنهم ليس لهم صاحب علم يرجع إليه المنحاز ويتذكره المنهزم، وأن قتالهم إما سلة وإما مزاحفة. والمزاحفة على مواعد متقدمة، والسلة مسارقة وفى طريق الاستلاب والخلسة[٤١].

ويكرر الشعوبيون اتهامهم للعرب بأنهم لم يكونوا يقاتلون بالليل ، ويأتون هذه المرة بالشواهد الشعرية على ذلك[٤٢].

وهنا يكون هجوم الشعوبية على العرب قد بلغ غايته، وتكون بذلك المرحلة الأولى وهى مرحلة الهجوم والتهجم من الشعوبية على العرب قد

استنفدت وسائلها، ولم تعجز حجة إلا ذكرتها، ولا سندًا من شـعر أو خبـر إلا أيدت به أقوالها.

ولولا أن الجاحظ هو المتصدى للشعوبية فى موقعة العصا تلك لذهب بنا الظن إلى أن مثل هذه الاتهامات يصعب الرد عليها و تفنيدها ، ولكن لأن الجاحظ هو المتصدى لهم فإننا نتوقع منه كما رفعهم وأعلى حججهم وأيـدهم – كعادته حين عرضه لأدلة الخصوم – بحجج من عنده، أن يغير على كـل ما بناه لهم فيهدمه، ويضع على آثاره صروح الحق والحقيقة.

وقد بدأ الجاحظ مرحلة الرد على هذه المطاعن الشـعوبية، بـذكره لمعارف العرب العسكرية وأدواتها القتالية التى كانت تعرفها فـى الجاهليـة مستشهدًا بالشعر الجاهلى على ذلك، ومؤكدًا بهذا أن اتهام الشعوبية للعـرب فى وسائل قتالهم وأدواتهم القتالية اتهام يفتقر إلى الدليل القـوى؛ لأن الأدلـة القوية تقف فى صفهم وتؤكد معرفتهم لكثير من فنون القتـال وأدواتـه منـذ العصر الجاهلى. كما خالف الجاحظ الترتيب المنطقى للمسـائل المطروحـة، وبدأ الرد على اتهامات الشعوبيين للعرب فى أدوات قتـالهم ووسـائلهم فـى القتال لرؤيتهم الاستفزازية للعرب فى الموقف الحربى(٤٣).

يقول الجاحظ مدافعًا عن العرب "قلنا: ليس فيما ذكـرتم مـن هـذه الأشعار دليل على أن العرب لا تقاتل بالليل. وقد يقاتل بالليل والنهـار مـن تحول دون ماله المدن وهول الليل. وربما تحاجز الفريقان، وإن كـل واحـد منهم يرى البيات، ويرى أن يقاتل إذا بيتوه وهذا كثير. والدليل علـى أنهـم كانوا يقاتلون بالليل قول سعد بن مالك فى قتل كعـب بـن مزيقيـا الملـك الغسانى:

وليلـةَ تُبَّـعٍ وخَمـيسِ كعـب	أتونا بعد ما نمنـا دَبيبـا
فلـم نُهْـدَدْ لبأسـهمُ ولكـن	ركبنا حدَّ كـوكبهم رُكوبـا
بضـربٍ يُفْلَـقُ الهامـاتُ منـه	وطعنٍ يفصل الحلَق الصَّليبا"(٤٤)

والجاحظ يرد على الشعوبية اتهامها فى عدم قتال العرب بالليل من خلال رميهم بعدم فهم مرامى الشعر العربى؛ لأنهم عمموا أحكامهم على عدم قتال العرب بالليل على هذه الأبيات التى استشهدوا بها فحسب، فى حين أن هناك أبياتًا شعرية أخرى كثيرة تدل على أنهم كانوا يقاتلون بالليل، وهى مما لم ينتبه الشعوبيون إليه أو عرفوها وأنكروها ليبلغوا مأربهم فى الاتهام والتشويه للعرب .

ثم يذكر الجاحظ بعض عادات العرب فى القتال وأدوات قتالهم وأساليب القتال عندهم، بما يدل على أن مواهبهم فى القتال وقدراتهم فيه لا تساويها إلا بلاغتهم فى فنون القول كالخطابة والشعر. وفى الوقت نفسه يدل ذكر الجاحظ لهذه الأدوات، وهذه الأساليب على تمكنه فى معرفة وسائل القتال وأدواته، وقد اكتسب هذه الخبرة من المعاينة إلى جانب السماع والقراءة، فهو قد شارك فى بعض الجيوش مرافقًا لقادتها[٤٥].

ويستمر الجاحظ فى ذكر دفاعه حول اتهامات الشعوبية للعرب فى أدوات قتالهم ووسائلهم فى القتال، ويطول المقام وحق له أن يطول ويحتوى على الأدلة من الشعر والحديث والخبر إفحامًا لهذه الشعوبية، ولدعاتها فيقول: "وكانوا إذا أجمعوا للحرب دخنوا بالنهار وأوقدوا بالليل"[٤٦]، ثم يذكر الشواهد الشعرية على ذلك[٤٧]، ثم يذكر أنهم كانوا يعرفون الكمين مستدلاً على ذلك بالشواهد الشعرية أيضًا[٤٨].

ويرد على اتهام الشعوبية بعدم معرفة العرب للركب بقوله: "وأما ذكرهم للركب فقد أجمعوا على أن الركب كانت قديمة، إلا أن ركب الحديد لم تكن فى العرب إلا فى أيام الأزارقة. وكانت العرب لا تعود أنفسها إذا أرادت الركوب أن تضع أرجلها فى الركب، إنما كانت تنزو نزوًا"[٤٩]، وقد قال عمر بن الخطاب: "اقطعوا الركب، وانزوا على الخيل نزوًا"[٥٠].

وهكذا نرى كيف جعل الجاحظ عدم كثرة استعمال العرب للركب مما يعد فى فنون شجاعتهم، وفروسيتهم، مستشهدًا بقول عمر بن الخطاب فى وصاياه للجنود المحاربين بعدم استعمالها لكونها تقيد الفارس وتحد من مهارته.

ثم يذكر الجاحظ أن العرب قد عرفوا أنواعًا مختلفة من الرماح خلاف اتهام الشعوبية لهم، ويذكر الجاحظ هذه الأنواع بلسان الخبير العسكرى، ومن قصر على الحرب معارفه[٥١].

ويؤكد الجاحظ حججه على كفاءة العرب القتالية فى الجاهلية – وهى الحقبة التى يحلو للشعوبية أن يطعنوا فيها العرب – بذكره أن العرب أمة يكثر فيها الغارات والحروب ويكثر فيهم الطلب؛ ولذا اهتموا بالحرب وأدواتها، وظهرت معرفتهم بوسائلها وأدواتها فى شعرهم بما يرد طعن الطاعن عليهم والجاحد لفضلهم.

وبعد أن يثبت الجاحظ للشعوبية بالأدلة والشواهد خطأ تصورهم لأسلحة العرب وأساليب قتالهم ، يعود ليرد على اتهامهم الأول والأساسى فى كتاب العصا ألا وهو تصورهم أن العرب لا يتميزون بخطابتهم عن أى أمة من الأمم؛ لأن كل الأمم عندها خطابة، ثم إن الفرس يتفوقون على العرب فى الخطابة خاصة أهل خراسان وسكان مرو على وجه الخصوص.

ولما كان هجوم الشعوبية هنا ينصب على أمر يعتز به العرب ؛ لذا جعل الجاحظ من عرضه لهجمات الشعوبية على الخطابة ورده عليها محور رده على الشعوبية، فى كتاب العصا من كتابه البيان والتبيين[٥٢].

وفى سبيل إظهار تفرد العرب فى خطابتها على سائر الأمم، يذكر ما عند هذه الأمم من خطابة والشكل الخاص بها، ثم يذكر خطابة العرب على أنها صورة مختلفة عن خطابة سائر الأمم لاعتمادها على البديهة والارتجال.

يقول الجاحظ: "وجملة القول أنـا لا نعـرف الخطـب إلا للعـرب والفرس. فأما الهند فإنما لهم معانٍ مدونة، وكتب مخلدة، لا تضاف إلى رجل معروف، ولا إلى عالم موصوف؟ وإنما هى كتب متوارثـة ، وآداب علـى وجه الدهر سائرة مذكورة.

ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بكيّ اللسان، غير موصوف بالبيان، مع علمه بتمييز الكـلام وتفصـيله معانيـه، وبخصائصه. وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق النـاس، ولـم يـذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة ، وفى الفرس خطباء، إلا أن كل كـلام للفرس ، وكل معنى للعجم ، فإنما هو عن طول فكرة وعـن اجتهـاد رأى ، وطول خلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكر ودراسة الكتـب ، وحكاية الثانى علم الأول ، وزيادة الثالث فى علم الثانى ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم"(٥٣).

هكذا حكم الجاحظ على خطابة الأمم فى عصره ، قبل أن يذكر مـا تميز به العرب عليها فى خطابتهم ذات الصبغة الارتجالية.

ويشعرنا هذا الاستقصاء من الجاحظ فى الحكم على خطابة الأمم المشهورة فى عصره باجتهاده فى التعرف على طرق امتلاك هذه الأمم للخطابة، ووسائل التعبير الأخرى التى يستخدمونها ليعبروا عن أفكارهم ومشاعرهم.

ونشعر من عبارات الجاحظ السابقة أن الأمر معه لم يعد يقتصر على محاولة رد افتراءات الشعوبية على العرب ، بل لقد أراد أن يغزو العدو فـى معاقله مما يعنى أنه قد دخل فى المرحلة الثالثة من جدله مع الشعوبية ، وها هو ذا ينقد خطابة الفرس ، ويرى أنها نتيجة طول الفكر والاجتهاد ، وحفـظ الثانى علم الأول ودراسة الكتب؛ أى إنها بلاغة فيها من السماع والحفظ أكثر

مما فيها من الابتكار، كما أن كتبهم التى وصلتنا ليس بمستبعد أن يكون قد ألفها بعض أبنائهم كسهل بن هارون، وابن المقفع ونسبوها لهم(٥٤).

أما خطابة العرب فلها صفة الارتجال التى تجعل كل خطبة فيها كأنها وليدة الساعة، وبنت وقتها، يقول: "وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة والمناقلة، أو عند صراع فى حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، و إلى العمود الذى إليه يقصد، فتأتيه المعانى أرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحدًا من ولده، وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أظهر، وكل واحد فى نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ، ويحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب ، وإن شيئًا هذا الذى فى أيدينا جزء منه، لبالمقدار الذى لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعدد التراب، وهو الذى يحيط بما كان، والعالم بما سيكون"(٥٥).

وبذلك فقد كان تمكن العرب فى الارتجال من أسبابه تلك الأمية التى كانوا فيها، و لكن الأمية وحدها ما كانت لتجعل العرب بهذه الطبيعة الارتجالية الفريدة بين الأمم لو لم يكن الله قد وهبهم تلك الموهبة فى قوة البديهة وسرعة الخاطر، وامتلاك ناصية البلاغة. ولكل هذا استحقوا أن تأتيهم المعجزة القرآنية التى أدركوا بما لديهم من مواهب بلاغية أنها تفوق

قدرات البشر، وخضعوا لها وآمنوا بها ، فحق لكل الأمم أن تخضع لها بخضوعهم؛ لأنهم فوق كل الأمم بلاغة وخطابة[٥٦].

ويؤكد الجاحظ فى أكثر من مناسبة على أن الكلام موهبة العرب الكبرى، وأنه اتفق لهم فى هذا ما لم يتفق لسائر الأمم، فقد "فاض بيانهم، وجاشت به صدورهم، وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم، حتى قالوا فى الحيات والعقارب، والذباب والكلاب، والخنافس والجعلان، والحمير والحمام ، وكل ما دب ودرج، ولاح لعين، وخطر على قلب.

ولهم بعد أصناف النظم، وضروب التأليف، كالقصيد والرجز، والمزدوج ، والمجانس، والأسجاع، والمنثور"[٥٧].

وإذن لا نعجب عندما تحفل أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام بالمنافسات بين الشعراء والمنافسات بين الخطباء، وأن يشجع النبى ﷺ على مثل هذه المنافسات والمسابقات ما لم يداخلها ذكر ما حرمه الله[٥٨].

وطبيعة العرب فى الارتجال شعرًا ونثرًا لم يكن الجاحظ أول من ذكرها؛ لأنها حقيقة يذكرها عنهم كل منصف لهم مدرك لفنون مواهبهم[٥٩].

ولكن يحسب للجاحظ أنه كان أول من وضح خصائص هذه الموهبة الارتجالية، وذكر تفرد العرب بها دون الأمم كلها[٦٠].

ويستطيع كل منكر لهذه البلاغة الارتجالية التى أوتيها العرب دون سائر الأمم أن يتحقق من صدق هذه الدعوى بأن يدخل إلى أرض الأعراب الخُلَّص والفصاحة التامة ليرى بعينيه ويسمع بأذنيه تلك الحقيقة، يقول الجاحظ فى ذلك: "وأخرى: أنك متى أخذت بيد الشعوبى فأدخلته بلاد الأعراب الخُلَّص، ومعدن الفصاحة التامة، ووقفته، شاعر مفلق، أو خطيب مصقع، علم أن الذى قلت هو الحق، وأبصر الشاهد عيانًا. فهذا فرق ما بيننا وبينهم"[٦١].

وإذا كان الجاحظ يرى أن طبيعة العرب هى الارتجال فى فنون البلاغة، فإنه يرى أن الإعداد والتنسيق للخطب والشعر لم يكن بعيدًا أيضًا عن طائفة منهم، ولكن يقتصر هذا الأمر على سكان الحضر والمدن منهم وعلى الأمم التى أخذت اللغة عنهم ، واستبدلوها بلغاتهم الأصلية[٦٢]، أما سكان البوادى – وهم ممثلو العرب فى نقائهم وفطرتهم الأولى– فكانوا مطبوعين على الارتجال والبداهة وسرعة الخاطر .

وبعد أن اطمأن الجاحظ إلى أن دائرة الصراع أصبحت داخل معاقل الشعوبية ، واطمأن أيضًا إلى حسم الأمر لصالح الخطابة العربية على حساب خطابة الأمم الأخرى – خاصة الفرس – نراه يعود للعصا مرة أخرى، ولكن العودة إليها هذه المرة ليس لإثبات تهم جديدة على العرب من قبل الشعوبية كما كان الأمر فى مرحلة الصراع الأولى ، ولكن ذكرها هذه المرة من أجل تعداد فضائلها ومزاياها التى تعادل فى الوقت نفسه فضائل العرب ومزاياهم؛ لأنهم يأخذونها علامة لهم وسيما تخصهم دون سائر الأمم.

ولهذا الارتباط الوثيق الذى أصبح بين العصا والعرب يكثر الجاحظ من عرض الشواهد المختلفة من قرآنٍ كريمٍ وحديث شريف، وشعر وخبر وقصص وأمثال على فوائد العصا وفضلها .

كما يستشهد الجاحظ بالأنبياء الذين ذكرهم الله فى قرآنه واتخذوا عصيًّا لهم يحملونها فى سائر أحوالهم كسليمان وموسى عليهما السلام، يقول الجاحظ: "والدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم، ومعدن شريف، ومن المواضع التى لا يعيبها إلا جاهل، ولا يعترض عليها إلا معاند، اتخاذ سليمان بن داود عليه السلام العصا لخطبته، وموعظته، ولمقاماته، وطول صلاته، ولطول التلاوة والانتصاب ، فجعلها لتلك الخصال جامعة.

قال الله عز وجل وقوله الحق:﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾[*] والمنسأة هى العصا"[٦٣].

ويذكر الجاحظ للقارئ سبب بدئه فى ذكر مزايا العصا باستخدام النبى سليمان لها بقوله: "وإنما بدأنا بذكر سليمان ﷺ لأنه من أبناء العجم، والشعوبية إليهم أميل ، وعلى فضائلهم أحرص، ولما أعطاهم الله أكثر وصفًا وذكرًا"[٦٤].

ولما كان الأمر كذلك يذكر الجاحظ نبيًّا آخر من أنبياء العجم ، كانت للعصا معه معجزات كثيرة لا ينكرها أحد منهم، هو موسى عليه السلام ، فيذكر الجاحظ الآيات القرآنية التى ذكرت ما ارتبط بعصاه من معجزات وأحداث كبرى كان لها وقع مؤثر فى التاريخ[٦٥].

ثم يذكر الجاحظ بعض قصص وأمثال وأبيات شعر للعرب ترتبط بالعصا[٦٦]، وينتهى من كل هذا الاستقصاء إلى هذه النتيجة التى تفحم الشعوبيين الذين يسخرون من العصا ويهونون من شأنها حين حَمْل العرب لها ساعة خطابتهم إذ يقول: "فإذا كانت العصا صحيحة ففيها من المنافع الكبار والمرافق الأوساط والصغار ما لا يحصيه أحد ، وإن فرقت ففيها مثل الذى ذكرنا وأكثر. فأى شئ يبلغ فى المرفق والرد مبلغ العصا.

وفى قول موسى: "ولى فيها مآرب أخرى" دليل على كثرة المرافق فيها، لأنه لم يقل: "ولى فيها مأربة أخرى" والمآرب كثيرة والذى ذكرنا قبل هذا داخل فى تلك المآرب" [٦٧].

(*) سورة سبأ: آية ١٤.

على أن الجاحظ لا يكفيه ما ذكره من شواهد وأدلة على فوائد العصا ومنافعها وكثرة تصرفها فى فنون الشعر والخطب والأمثال والقصص، فيذكر جملة أخرى من تلك الفوائد والمنافع ووجوه تصرفها المختلفة فى فنون الأدب والحكمة[٦٨] ، ثم يعلق على كل هذا الكم الممتع والبليغ من الشواهد المختلفة التى ذكرت فيها العصا بقوله : " انظر – أبقاك الله – فى كم فن تصرف فيه ذكر العصا من أبواب المنافع والمرافق ، وفى كم وجه صرفته الشعراء وضرب به المثل، ونحن لو تركنا الاحتجاج لمخاصر البلغاء، وعصىّ الخطباء، لم نجد بدًّا من الاحتجاج لجلّة المرسلين، وكبار النبيين، لأن الشعوبية طعنت فى جملة هذا المذهب على قضيب النبى ﷺ وعنزته، وعلى عصاه ومخصرته، وعلى عصا موسى" [٦٩].

وإذا كان الجاحظ قد وصل بالعصا إلى أن أصبحت قطبًا كبيرًا يتجمع حولها كل عجيب وطريف من أدب وفن وحكمة ، وحق لها بهذا القدر السنىّ الذى بلغته – أو بلّغها الجاحظ إياه – ألا تعبأ بناقد أو ناقم من قدرها. إذا كان الجاحظ قد وصل بالعصا إلى كل هذا فكان لابد له من أن يوجه نقده لهؤلاء الشعوبيين الذين جهلوا حقائق علم الاجتماع ، وطبائع الشعوب واختلاف البيئات، وتأثيرها بما تفرضه من قوانين[٧٠]. يقول الجاحظ فى ذلك: "ولو علم القوم أخلاق كل ملة، وزى أهل كل لغة، وعللهم فى ذلك واحتجاجهم له، لقل شغبهم، وكفونا مؤونتهم. هذه الرهبان تتخذ العصى من غير سقم ولا نقصان فى جارحة. ولابد للجاثليق من قناع ومن مظلة وبرطلة ومن عكاز ومن عصا ، من غير أن يكون الداعى إلى ذلك كبرًا ولا عجزًا فى الخلقة.

ومازال المطيل القيام بالموعظة أو القراءة أو التلاوة يتخذ العصا عند طول القيام، ويتوكأ عليها عند المشى كأن ذلك زائد فى التكهل والزماتة، وفى نفى السخف والخفة.

وبالناس حفظك الله أعظم الحاجة إلى أن يكون لكل جنس منهم سيما ولكل صنف منهم حلية وسمة يتعارفون بها"[٧١].

الأمر إذن هو مسألة جهل من الشعوبية فى معرفة عادات كل أمـــة، وعدم صدق معاينة منهم لما يدور حولهم ، فهذه الرهبان تتخـــذ العصــــى ، ولابد للجاثليق من قناع ومظلة وبرطلة ومن عكاز ومن عصـــا، فمـــا بـــال الشعوبية ترى كل هذا فى عادات الرهبان وغيرهم من الناس ثم تستنكر على العرب استخدام العصا حين قيامها بالخطابة والموعظة، ولها فيها معانٍ فـــى نفى السخف والخفة وزيادة فى التكهل والزماتة.

ويعطى الجاحظ أمثلة أخرى كثيرة على سيما الناس وعـــاداتهم عنـــد أداء مناسك عباداتهم، وفى أحوال حياتهم المختلفة، ويوضح اخـــتلاف الأمـــم بعضها عن بعض فى هذه العادات[٧٢]، حسب ما يتوارثونه عن الأجداد ، وما يُرَى بينهم منها نتيجة جريان الحوادث فيهم والنوازل بهم.

وبعد أن يقدم الجاحظ هذه الأمثلة والـــدلائل علـــى عـــادات الأمـــم وسيماهم يعود للعصا ليقول: "وأيضًا إن حمل العصا والمخصرة دليل علـــى التأهب للخطبة، والتهيؤ للإطناب والإطالة، وذلك شىء خاص فـــى خطبـــاء العرب، ومقصور عليهم، ومنسوب إليهم حتى إنهم ليذهبون فـــى حـــوائجهم والمخاصر بأيديهم، إلفًا لها وتوقعًا لبعض ما يوجب حملها، والإشارة بها.

وعلى ذلك المعنى أشار النساء بالمآلى وهن قيـــام فـــى المناحـــات ، وعلى ذلك المثال ضرَبْن الصدور بالنعال.

وإنما يكون العجز والذلة فى دخول الخلل والنقص على الجـــوارح ، أما الزيادة فيها فالصواب فيه"[٧٣].

ونشعر كأننا أمام قياس منطقى تقول إحـــدى مقدمتيـــه لكـــل الأمـــم والشعوب عادات تميزها عن بعضها البعض، والمقدمة الأخرى تقول العرب

أيضًا لهم عادات بما أنهم شعب من شعوب العـــالم، ومـــن عـــادات العـــرب استخدامهم العصا حين خطابتهم وإنشادهم .

وتكون نتيجة هذا القياس: إن استخدام العرب العصا عند الخطابة بما أنها عادة من عاداتهم، فهى إحدى عادات أمة من بـــين الإنســـانية، ويجـــب توقيرها ووضعها ضمن ظروفها شأن باقى عادات الأمم وتقاليدها.

على أن هذه العصا هى عند العرب بمثابة رمز يشير لمعانٍ كثيـــرة قد جهلتها الشعوبية أو تجاهلتها، وراحت تطعن من يســـتخدمها عـــن جهـــل وسوء تقدير.

على أن ما جعل الشعوبية تتجاهل قوانين الله فى أرضه، وعاداته فى خلقه، واختلاف كل أمة عن أمة ناتج عن حقدها على العرب، هذا الحقد الذى فجر تيار الشعوبية، وقربها من الزندقة ببغضها للدين الذى جاء بـــه العـــرب لهداية الإنسانية كلها ، يقول الجاحظ فى ذلك: "ثم اعلم أنك لم تر قومًـــا قـــط أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكًا لعرضـــه، ولا أطول نصبًا، ولا أقل غنمًا من أهل هذه النحلة، وقد شفى الصدور مـــنهم طول جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقد نار الشنآن فى قلوبهم، وغليـــان تلـــك المراجل الفائرة، وتسعر تلك النيران المضطرمة. ولو عرفوا أخلاق أهل كل ملة، وزى أهل كل لغة وعللهم، على اختلاف شاراتهم وآلاتهم ، وشـــمائلهم وهيئاتهم ، وما علة كل شئ من ذلك، ولم اجتلبـــوه ولـــم تكلفـــوه، لأراحـــوا أنفسهم، ولخفت مؤونتهم على من خالطهم"[٧٤].

وما كان لهذا الحقد الدائم الفوران فيهم من العـــرب لكـــونهم فتحـــوا بلادهم وملكوا أرضهم أن يهدأ أو تنطفئ ناره وينقطـــع فورانـــه لأن مبعثـــه الحسد، والحسد كما يقول الجاحظ: "داء ينهك الجسد، ويفسد الـــود، علاجـــه عسر، وصاحبه ضجر، وهو باب غامض وأمر متعذر، وما ظهر منـــه فـــلا يداوى، وما بطن منه فمداويه فى عناء"[٧٥].

فليمت إذن هؤلاء الشعوبيون بغيظهم، ولينخر هذا الحسد فى نفوسهم، ولتستمر عصا الجاحظ تطيح بما تجيش به نفوسهم وتأباه النفوس الكريمة والعقول الصحيحة، هذه العصا التى وقفت لهم بالمرصاد وسدت عليهم مداخل القول ومخارجه، وكان للجاحظ معها إطالة هى ليست كل ما عنده من قوة، ولكنها بهذا الحد كافية لإخراس هذا الفريق الشعوبى، وإن عادوا عاد لهم ومعه قوى أخرى وعصا جديدة، يقول الجاحظ: "وأما العصا فلو شئت أن أشغل مجلسى كله بخصالها لفعلت"[٧٦].

وهكذا رأينا الجاحظ يواجه الشعوبية الفارسية فى كتاب العصا، و يبطل مزاعمها ويرد اتهاماتها، ثم لا يكتفى بهذا، وإنما يُغير عليها فى معاقلها ويوجه سهام النقد لها، ويبرر جوانب التفوق عند العرب فى الخطابة وفنون القتال ، ويخرج الجاحظ من هذه الموقعة منتصرًا لصدق المرجعية التى يعتمد عليها ، ولقوة الأدلة والحجج التى يستند لها.

وقد تعددت صولات الجاحظ مع الشعوبية الفارسية على وجه الخصوص، ودحض فى كل موقعة له معها افتراءاتهم، ولعل فيما ذكرناه من الكتب التى ألفها الجاحظ حول الشعوبية ما يدل على هذه الصولات المختلفة التى وقفها الجاحظ مع الشعوبية الفارسية على وجه الخصوص، وكيف أنه كان بالمرصاد لها فى كل دائرة من دوائر الصراع التى اشتعل الجدل فيها بين العرب والشعوبية.

الشعوبية النبطية

يقصد بالنبط الساميون سكان العراق القدماء، ومنهم ملوك بابل[٧٧]، وقد كان وجودهم متمثلاً فى بيئة العراق، وكانوا يتباهون بما كان لهم من حضارات قديمة، كما تمثلت شعوبيتهم فى افتخارهم بمعرفتهم للفلاحة وإجادتهم لها[٧٨].

وقد كان ينظر إليهم من قِبَل العرب على أنهم من أقل الأمم والشعوب شأنًا؛ ولذلك يضرب المثل بهم فى القلة والذلة بين الأمم، ومع هذا نجد من المتكلمين من يتعصب لهم على القرشيين عند اختيار الإمام، فقد زعم ضرار ابن عمرو "أن الإمامة تصلح فى غير قريش، حتى إذا اجتمع قرشى ونبطى قدمنا النبطى؛ إذ هو أقل عددًا، وأضعف وسيلة فيمكننا خلعه إذا خالف الشريعة"(٧٩).

والملاحظ أن قول ضرار فى تقديم النبط على القرشيين فى اختيار الإمام ليس معناه أفضليتهم عليهم وعلى غيرهم من الأمم، ولكن يفهم من كلامه عكس ذلك، فهو يرى أن أقل الأمم شأنًا أولى أن تكون الخلافة فيهم حتى يسهل عزل الخليفة إن أخطأ أو حدث منه تجاوزات.

وينسب المسعودى للجاحظ وثمامة بن أشرس وضرار بن عمرو رأيًا غريبًا، فهو ينسب لهم أنهم يفضلون النبط على العرب، يقول المسعودى فى ذلك: "وقد زعم جماعة من المتكلمين – منهم ضرار بن عمرو وثمامة بن أشرس وعمرو بن بحر الجاحظ أن النبط خير من العرب، لأن من جعل الله تبارك وتعالى النبى ﷺ منهم لم يدع أكبر شرف فى الدنيا إلا وقد أعطاهم إياه، ولا نعمة على من جعل الله تعالى النبى عليه السلام منهم أكبر من النبى ﷺ، ولا بلوى على من لم يجعل الله عز وجل النبى ﷺ منهم أكبر من خروج النبى ﷺ، إلا أنهم مع هذا كله لهم عند الله فضل ما بين النعمة والبلاء"(٨٠).

ويُرد على الحجة السابقة القائلة بتفضيل النبط على العرب لكونهم قد ابتلوا بكون النبى ﷺ ليس منهم، وبسلب النبوة عنهم ، بأن العرب يمكن أن يتباهوا ويقولوا: إن كون النبى منهم يعنى اصطفاء الله لهم على سائر الأمم مما يعنى تفضيلهم عليها كلها (٨١).

ولسنا فى مجال تفضيل أمة على أمة؛ لأن الفضل يختلف من وقت لآخر فيها، أما ما نحب أن نناقشه هنا فهو مقدار صحة ما نسب للجاحظ فى تفضيله للنبط على العرب، وهو قول غريب لم ينسبه للجاحظ سوى المسعودى فى كتابه مروج الذهب.

وفى ذلك يقول د. شارل بللا: "وقد ندهش لقول المسعودى الذى تبناه بعده غولدزيهر، وفيه يدعى أن الجاحظ فضل النبطيين على العرب، ولا شك أن المقصود بذلك تفسير مغرض لرأى الجاحظ لم نجد فى آثاره ما يسوغه"[٨٢].

وفى رأيى أن الجاحظ المتعصب للعروبة لا يمكن أن يصدر عنه ما يشير إلى تفضيل أى أمة على العرب، ولكنه فيما يبدو قد ذكر أقوال ضرار ابن عمرو ومن يتبعه من الضرارية على أنها أفكار تشيع فى مجتمعه، وعرضها بأساليبه فى إبراز جوانب القوة فيها ليسهل الرد عليها بعد ذلك، فظن بعض الناس – ومنهم المسعودى – أن الجاحظ يقول بآراء الضرارية، كما ظنوا أيضًا لعرضه حجج العثمانية بقوة أن الجاحظ يميل إليها[٨٣]، على أن الجاحظ قد نفى عن نفسه الميل إلى العثمانية أو الضرارية بقوله لهؤلاء الذين يسيئون فهم مقاصده من مؤلفاته فى الفرق والمذاهب: "وعبتنى بحكاية قول العثمانية والضرارية، وأنت تسمعنى أقول فى أول كتابى: وقالت العثمانية والضرارية، كما سمعتنى أقول وقالت الرافضة والزيدية، فحكمت علىّ بالنصب لحكايتى قول العثمانية، فهلا حكمت علىّ بالتشيع لحكايتى قول الرافضة!! وهلا كنت عندك من الغالية لحكايتى حجج الغالية، كما كنت عندك من الناصبة لحكايتى قول الناصبة!!"[٨٤].

ويؤكد الشهرستانى أن المعتزلة – وبالطبع منهم الجاحظ – لم يوافقوا ضرار بن عمرو فى تفضيله النبط على العرب، أو تفضيل اختيار الإمام منهم على اختياره من العرب[٨٥].

نتائج الصراع الشعوبى العربى كما رصده الجاحظ

أما عن نتائج الصراع الشعوبى العربى كما رصده الجاحظ فتتلخص فيما أشار إليه الجاحظ مما صدر عن الشعوبية من مؤلفات وأشعار وأقوال تقدح فى العرب وتشكك فى صحة أنسابهم(٨٦)، وتطعن فى مآكلهم وتهون من شأنها(٨٧)، كما تطعن فى قيمهم الخليقة التى عرفوا بها(٨٨).

إلى جانب ما صدر من شعرائها من شعر يتباهى بالموروث الفارسى والحبشى، ويقلل من شأن تاريخ العرب، كما يضاف لهذا ما أشار إليه الجاحظ من نشر شعراء الشعوبية لتيار من الشعر الماجن فى المجتمع لم يعرفه العرب الأوائل فى جزيرتهم(٨٩).

كما لم يسلم نسب الجاحظ من هجمات الشعوبية، لكونه أكبر من دافع عن العروبة ضدها(٩٠).

ولكن هجمات الشعوبية فى كل هذه الاتجاهات قد باءت بالفشل لوقوف الجاحظ وإخوانه من حماة العروبة والإسلام ضدها، وبقيت الجوانب الإيجابية لهذا الصراع شاهدة على تفوق الحق على الباطل وقهره له.

وكان من نتائج هذا الصراع أيضًا – كما صوره الجاحظ – جمع تراث العرب الشعرى والنثرى ليقف أمام اتهامات الشعوبية للعرب بالإفلاس الحضارى بين الأمم – كالطود الشامخ(٩١)، ولعل المجموعات الكثيرة من الخطب والحكم والأمثال العربية المذكورة فى البيان والتبيين كانت من أجل هذا الغرض، وليقول لهم الجاحظ: هذا غيض من فيض هذه الأمة البليغة التى تشككون فى بلاغتها وخطابتها.

كما نتج أيضًا عن هذا الصراع إثبات الجاحظ أن "بيان العرب القديم يتحدى المعاصرة بالقدم .. فى حين يقف بيان الفرس القديم هزيل المعاصرة

يسقطه الزيف وتشجبه الشكوك"[٩٢]؛ لأن الجاحظ قد شكك فى مؤلفات الفرس، وقال إنها قد تكون حديثة التأليف ومنحولة على القدماء[٩٣].

كما يحسب من نتائج هذا الصراع نشاط حركة الترجمة عن الأمم المختلفة، وقد عملت هذه المؤلفات المترجمة على اتساع أفق المعرفة، ونشاط حركة الثقافة والعلم[٩٤].

وأيضًا كان من نتائج هذا الصراع ما أكده الجاحظ من وحدة أجناس الأمة الإسلامية، ومحاولته التوفيق بينها، فقد "كان الجاحظ أحد كبار المعبرين عن فكرة وحدة الأمة وتماسك عناصرها وأجناسها، والحفاظ على أصالتها العربية. لأن فكرة وحدة الأمة كانت من صميم رسالة الإسلام، ولأنها تنسجم مع فلسفته فى الإنسان، ولأنها كانت أساس فلسفة الخلافة فى الحكم ، وعلى هذا كان الجاحظ فى معظم ما ألف فى مناقب الأقوام والقبائل والأسر وفضائل المدن يبحث عما يجمع ولا يفرق، ويحاول ألا يعطى قومًا فوق ما يستحقون، ولا يبخس قومًا شيئًا من حقهم"[٩٥].

والجاحظ نفسه يقول فى نبذ المفاخرة بالأنساب لأثرها فى نشوب الخلافات والعداوات: "واحذر خصلة رأيت الناس قد استهانوا بها، وضيعوا النظر فيها، مع اشتمالها على الفساد، وقدحها البغضاء فى القلوب، والعداوة بين الأوداء: المفاخرة بالأنساب ؛ فإنه لم يغلط فيها عاقل، مع اجتماع الإنس جميعًا على الصورة وإقرارهم جميعاً بتفرق الأمور المحمودة والمذمومة من الجمال والدمامة واللؤم والكرم، والجبن والشجاعة، فى كل حين وانتقالهما من أمة إلى أمة، ووجود كل محمود ومذموم فى أهل كل جنس من الآدميين. وهذا غير مدفوع عند الجميع.

فلا تجعلن له من عقلك نصيبًا، ولا من لسانك حظًّا، تسلم بذلك على الناس أجمعين، مع السلامة فى الدين"[٩٦].

وفى رأى الجاحظ أن اختلاف أجناس الأمة الإسلامية ليس معناه أن يظل كل جنس معزولاً عن الآخر فيها، ولكنه رأى أن يتم هذا الانصهار عن طريق وحدة اللغة والدين فيها،كما حدث الائتلاف بين العدنانيين، والقحطانيين قديمًا، فقد تعرَّب العدنانيون ودخلوا داخل دائرة العرب، وكذلك على سائر الأجناس أن تجعل من دائرة الدين الإسلامى الذى ينتمون إليه واللغة العربية التى استبدلوها بلغاتهم الأصلية – طريقًا للائتلاف بينها وجسرًا للوحدة القومية التى تشملهم جميعًا[٩٧].

وأخيرًا فقد كان من نتائج هذا الصراع انتصار الإسلام على الزندقة، وتمثل ذلك النصر فى هذه المؤلفات الكثيرة التى واجهتها، وكان من بينها مؤلفات الجاحظ التى أسكت فيها زعماءها، وأبطل حججهم، وأوضح لكل مبصر خواء فكرهم وسطحيته، وأزاح كل مزاعمهم حول القرآن الكريم والحديث الشريف[٩٨].

- هوامش الفصل الثالث -

(١) ضحى الإسلام، ١/٦٠ .

(٢) الجاحظ حياته وآثاره ، ص ٢٤٢ .

(٣) العصر العباسى الأول ، ص ٦٠٥ .

(٤) النجوم الزاهرة، ٣/٢٧ .

(٥) د. محمد توفيق حسين: مفهوم الإنسانية والعنصرية عند الجاحظ. بغداد، الموسوعة الصغيرة، دار الحرية للطباعة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص١٠٦– ١٠٧.

(٦) د. على أبو ملحم: مقدمة رسائل الجاحظ . الرسائل السياسية، ص ٥١.

(٧) رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون. رسالة مناقب الترك، ١/٢٩ .

(٨) الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامراء، ص ٩٦، والعصر العباسى الثانى، ص٦٠٥، ود . فوزى سعد عيسى: الترسل فى القرن الثالث الهجرى. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩١م، ص٦٩.

(٩) رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون. كتاب فخر السودان على البيضان، ١/١٨٢ – ١٨٣.

(١٠) المصدر السابق، ١/١٨٣.

(١١) المصدر السابق، ١/١٨٣– ١٨٤ .

(١٢) من هؤلاء الباحثين الدكتور خليل جفال فى كتابه: الشعوبية والأدب أبعاد ومضمونات، ص ٣٦ .

(١٣) رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون. كتاب فخر السودان على البيضان، ١ /١٨٥– ١٨٩ .

(١٤) انظر قصيدة سنيح بن رباح وشرح الجاحظ لها فى رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون . كتاب فخر السودان على البيضان، ١/١٩٠– ١٩٢ .

(١٥) المصدر السابق، ١/١٩٣ –١٩٤ .

(١٦) المصدر السابق، ١/١٩٧.

(١٧) المصدر السابق، ١/١٩٧.

(١٨) المصدر السابق، ١/٢١١–٢١٢، ٢١٩.

(١٩) فى حين يرى باحثون أن الشعوبية الفارسية هى أول الشعوبيات ظهورًا على مسرح الأحداث فى الأمة الإسلامية، ومن هؤلاء: إسماعيل العرفى: فى الشعوبية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٢١، ود. إبراهيم العدوى : المجتمع العربى ومناهضة الشعوبية، ص ١٧، ود طه الحاجري: مقال عن أبى عبيدة فى مجلة الكاتب المصرى، مجلد ٢، عدد ٦، مارس ١٩٤٦، ص ٢٧٧ .

(٢٠) المناحى الفلسفية عند الجاحظ ، ص ٢٥ .

(٢١) محمد أبو زهرة : تاريخ الجدل. القاهرة، دار الفكر العربى، لا.ت، ص ٢٢٩ .

(٢٢) العرب والتحدى ، ص ٦١ – ٦٣ .

(٢٣) فى الشعوبية، ص ٢٥، والجذور التاريخية للشعوبية، ص١١.

(٢٤) د. إحسان عباس: ملامح يونانية فى الأدب العربى. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٧م، ص٢٦ ، وبطرس البستانى : أدباء العرب فى الأعصر العباسية حياتهم وآثارهم، نقد آثارهم. بيروت ، دار الجيل، دار مارون عبود، ١٩٧٩م، ٢٦٥/٢ ، وأثين بلاسيوس: بحث عن الحيوان. نشره د. الطاهر أحمد مكى فى كتابه دراسة فى مصادر الأدب. القاهرة، دار المعارف، ط٥، ١٩٨٠م، ص ١٣٣، ومفهوم الإنسانية والعنصرية فى أدب الجاحظ، ص٨٥– ٨٦.

(٢٥) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. من كتابه فى الوكلاء، ١٠٣/٤– ١٠٤.

(٢٦) البيان والتبيين، ٣٨٣/١ .

(٢٧) المصدر السابق، ٥/٢ .

(٢٨) النثر العربى فى مراحل تطوره ، ص ١٥٧ .

(٢٩) المرجع السابق ، ص ١٥١ .

(٣٠) البيان والتبيين، ٥/٣ – ١٢٤.

(٣١) المصدر السابق، ٥/٣ – ٦ .

(٣٢) المصدر السابق، ١٢/٣ .

(٣٣) النثر العربى فى مراحل تطوره ، ص ١٥٦ .

(٣٤) البيان والتبيين، ١٣/٣.

(٣٥) المصدر السابق، ١٤/٣ .

(٣٦) المصدر السابق، ١٥/٣ .

(٣٧) المصدر السابق، ١٦/٣ .
(٣٨) المصدر السابق، ١٧/٣ .
(٣٩) المصدر السابق، ١٧/٣ .
(٤٠) المصدر السابق، ١٧/٣ – ١٨ .
(٤١) المصدر السابق، ١٨/٣ .
(٤٢) المصدر السابق، ١٩/٣ .
(٤٣) الجدل والقص فى النثر العباسى، ص ٩٢ .
(٤٤) البيان والتبيين، ١٩/٣ – ٢٠.
(٤٥) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة مناقب الترك، ٦١/١ – ٦٢ ، وحدائق الأزاهر ، ص ٢٥٩.
(٤٦) البيان والتبيين، ٣ / ٢٢.
(٤٧) المصدر السابق، ٢٢/٣.
(٤٨) المصدر السابق، ٢٣/٣.
(٤٩) المصدر السابق، ٢٣/٣ .
(٥٠) المصدر السابق، ٢٤/٣ .
(٥١) المصدر السابق، ٢٤/٣ .
(٥٢) الجذور التاريخية للشعوبية ، ص ٩٢.
(٥٣) البيان والتبيين، ٢٨/٣ .
(٥٤) المصدر السابق، ٢٩/٣ .
(٥٥) المصدر السابق، ٢٨/٣ – ٢٩ .
(٥٦) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. من كتابه فى حجج النبوة، ٢٧٣/٣ – ٢٨٠ .
(٥٧) المصدر السابق، ٣ / ٢٧٣.
(٥٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى. بيروت، دار صادر، لا.ت، ٢٩٤/١ .
(٥٩) وصف ابن المقفع العرب بهذه الطبيعة الارتجالية فى فنون بلاغتهم فقال: "أى حكمة تكون أبلغ، أو أحسن أو أغرب، أو أعجب، من غلام بدوى لم ير ريفًا، ولم يشبع من طعام، يستوحش من الكلام، ويفزع من البشر، ويأوى إلى القفر واليرابيع والظباء، وقد خالط الغيلان، وأنس بالجان فإذا قال الشعر وصف ما لم

يره، ولم يغذ به ولم يعرفه، ثم يذكر محاسن الأخلاق ومساويها، ويمدح ويهجو ويذم ويعاتب، ويشبب ويقول ما يكتب عنه، ويروى له، ويبقى عليه"، انظر: زهر الآداب، ٤٠٣/١.

(٦٠) د. وديعة طه النجم: الجاحظ والنقد الأدبى، ص ٥٠ ، وانظر اعتراض محمد أبو زهرة على هذا الرأى فى كتابه: الخطابة أصولها وتاريخها فى أزهى عصورها. القاهرة، دار الفكر العربى، لا.ت، ص ١٨٤، وكذلك إبراهيم سلامة فى كتابه: بلاغة أرسطو بين العرب واليونان دراسة تحليلية – نقدية – تقارنية. مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م، ص٧١، ود. على أبو ملحم فى كتابه: المناحى الفلسفية عند الجاحظ ، ص٢٠٦ ، ودكتور وليد قصاب فى كتابه: التراث النقدى والبلاغى للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجرى. الدوحة، دار الثقافة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٦٦. وكل هؤلاء الباحثين لم يقتنعوا بأن العرب وحدهم كانوا يمتلكون خاصية الارتجال فى الخطابة دون سائر الأمم، بل شككوا فى هذه الملكة لديهم. والحق أن ما نقله الجاحظ من بلاغة العرب فى البيان والتبيين التى صدر أكثرها عن الارتجال يرد على اعتراض هؤلاء المعترضين ، إلى جانب أن هذه الطبيعة فى العرب توافرت لها عوامل مختلفة ذكرناها ولم تتوافر لغيرهم من الأمم وقتذاك ، وقد توجد بعض الأمم التى يتوافر فيها عدد معين ممن عرفوا بسلامة الطبع، وقوة الارتجال، ولكن أن توجد أمة كلها مطبوعة على الارتجال فهذا مالم يتوافر لغير العرب، وهذا ما قصد الجاحظ إليه حين وصفهم بالارتجال دون سائر الأمم؛ ولذا فلا مسوغ لاعتراض من اعترض على قول الجاحظ بتفرد العرب بخصيصة الارتجال فى بلاغتها دون سائر الأمم.

(٦١) البيان والتبيين، ٢٩/٣.

(٦٢) المصدر السابق، ٢٠٣/١.

(٦٣) المصدر السابق، ٣٠/٣ .

(٦٤) المصدر السابق، ٣١/٣ ، وانظر اتفاق ابن قتيبة مع الجاحظ فى هذا الرأى فى كتابه العرب أو الرد على الشعوبية ضمن كتاب رسائل البلغاء ، ص ٣٥٤ .

(٦٥) البيان والتبيين، ٣١/٣ ، ٣٢ ، ٣٥ .

(٦٦) المصدر السابق، ٣٨/٣– ٤٩ .

(٦٧) المصدر السابق، ٣/٥٠ .

(٦٨) المصدر السابق، ٣/٣٩ – ٧٧ .

(٦٩) المصدر السابق، ٣/٨٩، وانظر فى وصف العصا التى كان يخطب النبى وهو متكئ عليها فى الطبقات الكبرى لابن سعد، ١/ ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٣٧٧.

(٧٠) د. سعيد منصور : النثر العربى فى مراحل تطوره ، ص ١٦٢، وانظر أيضًا د. محمد توفيق حسين: مفهوم الإنسانية والعنصرية فى أدب الجاحظ ، ص٧٨ – ٧٩ ، ومحمد أبو زهرة : الخطابة ، ص ٣٣ – ٣٤ .

(٧١) البيان والتبيين، ٣/٩٠ .

(٧٢) المصدر السابق، ٣/٩٥ ، ٩٦، ٩٧، ٩٨ ، ١٠٦، ١١٠، ١١٣، ١١٤ ، ١١٥ .

(٧٣) المصدر السابق، ٣/١١٧ .

(٧٤) المصدر السابق، ٣/٣٠ .

(٧٥) رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون. من كتابه فى الحاسد والمحسود، ٣/ ٣– ٤ .

(٧٦) البيان والتبيين، ٣/٤٤ .

ونحب أن نشير هنا أننا لو عقدنا مقارنة بين كتاب العصا للجاحظ وكتاب العصا لأسامة بن منقذ، لوجدنا كتاب العصا للجاحظ يشتمل على كل عناصر الفن والجدل والمنطق من أجل إفحام الشعوبية وهدم حصونها ، وليست المادة التى يستعين بها الجاحظ فى هذا الكتاب من شواهد متنوعة من القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر والخبر والمثل إلا وسائل لتأييد قضيته، انظر فى هذا: النثر العربى فى مراحل تطوره، ص١٤٧ – ١٤٨.

أما كتاب العصا لأسامة بن منقذ فهو على حد قول مؤلفه ليس إلا حشدًا للروايات والأشعار والأمثال، وغير ذلك من الشواهد دون أن يكون وراء كل هذا أى قضية من القضايا. انظر: أسامة بن منقذ: كتاب العصا. منشور ضمن نوادر المخطوطات. تحقيق عبد السلام هارون. بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ١/٢٠٣، وبهذا يظهر الجاحظ على أنه كاتب متفرد بين كتاب العرب القدماء فى معالجته لقضايا مجتمعه، وبثه الروح الحية فى تلك النصوص التى ينقلها فى كتبه.

(٧٧) الجذور التاريخية للشعوبية ، ص ١١٨ .

(٧٨) المرجع السابق، ص ١١٨ ، وديلاس أوليرى: الفكر العربى ومكانه فى التاريخ. ترجمة د. تمام حسان. مراجعة د. مصطفى حلمى. القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، لا.ت، ص ١١٧ .

(٧٩) الشهرستانى: الملل والنحل. تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل. دار الفكر، لا.ت، ص ٩١، ولاحظ أن ابن خلدون يخالف ضرارًا فى أن الإمامة – فى رأيه – يجب أن تكون فى أقوى القبائل وأشدها ليستقر أمر الأمة وتخضع باقى القبائل لها، المقدمة. الإسكندرية، دار ابن خلدون، لا.ت، ص ١٣٦ – ١٣٨ .

(٨٠) مروج الذهب، ٢/ ٥٣ .

(٨١) المصدر السابق، ٥٤/٢

(٨٢) الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامراء، ص ٥١.

(٨٣) مروج الذهب، ١٩٥/٤ .

(٨٤) الحيوان، ١١/١ .

(٨٥) الملل والنحل للشهرستانى، ص٩١.

(٨٦) انظر فى هذا: رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة مناقب الترك، ٧٥/٣ ، وشرح نهج البلاغة، ٦٨/١١– ٧١، والعقد الفريد، ٤١٢/٣ ، والجذور التاريخية للشعوبية، ص٩١، والشعوبية والأدب أبعاد ومضمونات، ص١٥٢، ولاحظ تعليق الجاحظ فى قوله بأن العرب وحدهم هم الذين عنوا بحفظ الأنساب من بين الأمم فى كتابه: البيان والتبيين، ١٨٨/١، ومع هذا فقد رفض المفاخرة بها على سبيل العصبية والتفاخر، انظر: العرب والتحدى ، ص ٧٤ – ٧٥ .

(٨٧) تعرض الجاحظ لمطاعن الشعوبية على مآكل العرب وأطعمتهم ورد عليهم فى المصادر الآتية: البخلاء، ص ٢١٣– ٢٣٧ ، والحيوان، ١٦٠/٢، ورسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. من كتابه فى الأوطان والبلدان، ١١٧/٤ .

(٨٨) انظر فى هذا: البخلاء، ص ٢١٨، ومقدمة البخلاء للدكتور طه الحاجرى، ص٢٨، والجذور التاريخية للشعوبية، ص١١٠– ١١١ .

(٨٩) انظر فى هذا: رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان، ١٠٥/٢ ،١١٣– ١١٥، والحيوان، ١٤٨/١، وثمار القلوب ، ص٥٥٣ – ٥٥٤، وتيارات ثقافية بين العرب والفرس ، ٢٠٧ ، ٢٢٦ ، وول ديورانت: قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران (عصر الإيمان). القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر. الجزء الثانى، المجلد الرابع، ص١٣٦ ، والموشى ، ص١٧٠ – ١٧١، والنثر الفنى فى العصر العباسى الأول اتجاهاته وتطوره، ص٤٠ ، وضحى الإسلام ، ص١٩٣ – ١٩٤ ، وحديث الأربعاء، ٣٢/٢.

(٩٠) د. عبد الفتاح على عفيفى الأسود: الجاحظ وأثره فى النقد الأدبى والنثر الفنى خلال النصف الأول من القرن العشرين، رسالة دكتوراة مخطوطة، نوقشت بكلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٥٦ .

(٩١) الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامراء ، ص ١٨٩ ، والجذور التاريخية للشعوبية، ص ٩٥ – ٩٦.

(٩٢) النثر العربى فى مراحل تطوره ، ص ١٦١.

(٩٣) البيان والتبيين، ٢٩/٣.

(٩٤) الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٠٥، والنثر الفنى فى العصر العباسى الأول ، ص ٣٦٧ – ٣٦٨ .

(٩٥) مفهوم الإنسانية والعنصرية عند الجاحظ ، ص١١ .

(٩٦) رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون. رسالة المعاش والمعاد، ١٢٦/١.

(٩٧) انظر فى هذا: البيان والتبيين، ٢٩١/٣ – ٢٩٢، والفكر السياسى عند المعتزلة ، ص٢٤١– ٢٤٢ ، والجذور التاريخية للشعوبية ، ص ١٠٣ .

(٩٨) انظر ردود الجاحظ على كثير من مسائل الزنادقة حول آيات من القرآن الكريم فى كثير من صفحات كتاب الحيوان على وجه الخصوص، كما أن هناك فصلاً كاملاً حول هذا الموضوع فى كتاب:
THE WORLD – VIEW OF AL-JAHIZ, PP. 170 – 181.



المصادر والمراجع

أولاً: المصـــادر

أسامة بن منقذ:

كتاب العصا. منشور ضمن نوادر المخطوطات. تحقيق عبد السلام محمـد هارون. بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

الإسفراييني:

التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية من الفرق الهالكين. عني بعرضـه وخرج أحاديثه وعلق حواشيه محمد زاهد بن الحسن الكـوثري، وعنـي بنشره وراجع أصله ووقف على طبعه السيد عـزت العطـار الحسـيني. القاهرة، مطبعة الأنوار، ط١، ١٩٤٠ م / ١٣٥٩ هـ.

الأصفهاني:

الأغاني. تحقيق نخبة من المحققين. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الألوسي البغدادي:

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. بيروت، دار إحيـاء التراث العربي، لا.ت.

البغدادي (أبو منصور عبد القاهر):

- الفرق بين الفرق. حققه محمد محيـي الـدين عبـد الحميـد. مكتبـة دار التراث، لا.ت.
- الملل والنحل. حققه د. ألبير نصري نادر. بيروت، دار المشرق، لا.ت.

البقاعي:

نظم الدرر في تناسق الآيات والسور . تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي . بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .

البيضاوى:

تفسير البيضاوى المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تحقيق الشيخ عبد القادر عرفات. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٦ هـ/١٩٩٦م.

ابن تغرى بردى:

- مورد اللطافة فى من ولى السلطنة والخلافة. تحقيق ودراسة وتعليق د. نبيل محمد عبد العزيز أحمد. القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٩٧م.

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. قدَّم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين. بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

الثعالبى:

ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥ م.

الجاحظ:

- البخلاء. تحقيق د. طه الحاجرى. القاهرة، دار المعارف، ط٩،١٩٩٠م.

- البرصان والعرجان والعميان والحولان. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، ط١ ، ١٤١٠ هـ/١٩٩٠م.

- البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، لا.ت.

- (كتاب منسوب إليه) – التاج فى أخلاق الملوك. تحقيق أحمد زكى باشا. إيران، فروردين، ط١، ١٣٧٠هـ.

- الحيوان. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الفكر، و دار الجيل، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

- رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة، مكتبة الخانجى، لا.ت.

- رسائل الجاحظ. الرسائل السياسية. قدم لها وبوبها وشرحها د. على أبو ملحم . بيروت، دار مكتبة الهلال. ط١ ، ١٩٨٧ م .

- رسالة فى مناقب خلفاء بنى العباس. تحقيق د. محمد محمود الدروبى. الكويت، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الثانية والعشرون، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

- العثمانية. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١١ هـ/ ١٩٩١ م.

- فصول مختارة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. حققها وقدَّم لها د. محمد محمود الدروبى. عمان، دار البشير، ط١، ٢٠٠٢م.

ابن الجوزى:

زاد المسير فى علم التفسير. بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٧ هـ/ ١٩٨٧م.

ابن أبى الحديد:

شرح نهج البلاغة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابى الحلبى وشركاه، ط٢، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

الحصري القيروانى:

- جمع الجواهر فى الملح والنوادر. حققه وطبعه وفصَّل أبوابه ووضع فهارسه على محمد البجاوى. بيروت، دار الجيل، ط٢،١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- زهر الآداب وثمر الألباب. تحقيق على محمد البجاوى. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبى وشركاه، لا. ت.

أبو حيان (محمد بن يوسف):

البحر المحيط فى التفسير. بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٢ هـ/١٩٩٢م.

ابن خلدون:

مقدمة ابن خلدون. الإسكندرية، دار ابن خلدون، لا. ت.

الخوارزمى:

المناقب والمثالب. تحقيق إبراهيم صالح. دار البشـــائر للطباعـــة والنشـــر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠ هـــ/١٩٩٩م.

الدميرى:

حياة الحيوان الكبرى. ملتزم الطبع والنشر مكتبة ومطبعة مصطفى البـــابى الحلبى وأولاده بمصر، ط٥ ، ١٣٩٨ هـــ / ١٩٧٨ م .

الزمخشرى:

ربيع الأبرار ونصوص الأخبار . تحقيق عبد الأميـــر مهنـــا . بيـــروت ، مؤسسة الأعلمى / ط١ ، ١٤١٢ هـــ / ١٩٩٢ م .

ابن سعد:

الطبقات الكبرى. بيروت، دار صادر، لا.ت.

أبو السعود محمد بن العماوى:

تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكـــريم . بيروت ، دار إحياء التراث العربى ، ط٢ ، ١٤١١ هـــ/١٩٩٠ م.

السيوطى:

تاريخ الخلفاء. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. القاهرة، لا.ت.

الشنقيطى:

أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن. الرياض، ١٤٠٣ هـــ/ ١٩٨٣م.

الشهرستانى:

الملل والنحل. تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل . دار الفكر ، لا .ت .

الصفدى:

الوافى بالوفيات. تحقيق نخبة من المحققين .الناشـــر دار فرانـــز شـــتاينر بفيسبادن.

الطبرى:

- تاريخ الطبرى (تاريخ الأمم والملوك). تحقيق محمـــد أبـــو الفضـــل إبراهيم . القاهرة ، دار المعارف ، ط٤ ، ١٩٧٩ م .

- تفسير الطبرى، جامع البيان عن تأويل آى القرآن. القاهرة. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البـــابي الحلبـــى وأولاده بمصـــر، ط٣، ١٣٨٨ هـــــ/ ١٩٦٨م.

أبو الطيب عبد الواحد بن على اللغوى الحلبى:

مراتب النحويين. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، مكتبة نهضـــة مصر ومطبعتها، لا. ت.

ابن عاصم الأندلسى:

حدائق الأزاهر. تحقيق د. عفيف عبد الرحمن. بيروت، دار المسيرة، ط١، ١٤٠٧هـــ/١٩٨٧م.

ابن عبد ربه:

العقد الفريد. تحقيق أحمد أمين وآخرين. القاهرة، لجنة التأليف والترجمـــة والنشر، ١٣٨٩هـــ / ١٩٦٩م .

عبد الرحيم بن أحمد العباسى:

معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. حققه وعلق حواشيه محمد محيى الدين عبد الحميد. القاهرة مطبعة السعادة، ١٣٦٧هـــ/ ١٩٤٧ م.

عبد القاهر الجرجانى:

الرسالة الشافية فى وجوه الإعجاز، المنشورة مع دلائل الإعجاز. تحقيـــق محمود محمد شاكر. القاهرة، الخانجى.

عبد الكريم النهشلى:

اختيار الممتع فى علم الشعر وعمله. تحقيق د. محمود شاكر القطان. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٨٣م .

أبو عبيدة معمر بن المثنى:

- العققة والبررة. منشور ضمن كتاب: نوادر المخطوطات. تحقيق وتقديم عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

مجاز القرآن. تحقيق د. محمد فؤاد سزكين. القاهرة، مكتبة الخانجى، لا.ت.

ابن قتيبة:

- العرب أو الرد على الشعوبية، كتاب منشور ضمن كتاب رسائل البلغاء. جمع وتحقيق محمد كرد على. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٣، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

- عيون الأخبار. بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

القرطبى:

تفسير القرطبى. دار الريان للتراث.

المرتضى (الشريف):

أمالى المرتضى. غرر الفوائد ودُرر القلائد . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبى وشركاه .

المسعودى:

- مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. بيروت، المكتبة الإسلامية، لا.ت.

المطهر بن طاهر المقدسى:

البدء والتأريخ. اعتنى بنشره وترجمته كلمان هوار. طبعة بايز، ١٨٩٩ م.

ابن منظور:

لسان العرب. تحقيق عبد الله على الكبير، و محمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلى. القاهرة، دار المعارف، لا.ت.

ابن النديم:

- الفهرست. تحقيق رضا تجدّد. بيروت، دار المسيرة ، ط٣، ١٩٨٨م.
- الفهرست. بيروت، دار المعرفة ، لا.ت.

ياقوت الحموى:

معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب. تحقيق د. إحسان عباس. بيروت، دار الغرب الإسلامى، ط١، ١٩٩٣م.

ثانياً: المراجـــع

إبراهيم أحمد العدوى (دكتور):

المجتمع العربى ومناهضة الشـــعوبية. القـــاهرة، مكتبـــة نهضـــة مصـــر ومطبعتها بالفجالة، ١٩٦١م.

إبراهيم سلامة (دكتور):

بلاغة أرسطو بين العرب واليونان دراسة تحليلية – نقدية – تقارنية. مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م .

أثين بلاسيوس:

بحث عن الحيوان. نشره د. الطاهر أحمد مكى فى كتابـــه: دراســـة فـــى مصادر الأدب. القاهرة، دار المعارف، ط٥، ١٩٨٠م.

إحسان عباس (دكتور):

- ملامح يونانية فى الأدب العربى. بيروت، المؤسسة العربية للدراســـات والنشر، ط٢، ١٩٩٣م.

أحمد أمين:

ضحى الإسلام. القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ط١٠. لا.ت.

أحمد محمد الحوفى (دكتور):

- تيارات ثقافية بين العرب والفرس. القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط٣، لا.ت.

- الجاحظ. من سلسلة دراسات فى الإسلام. العدد ٣٨ السنة الرابعة، ١٥ من جمادى الأولى١٣٨٤هـ ،٢١ من سبتمبر ١٩٦٤م. يصدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مطابع شركة الإعلانات الشرقية.

إسماعيل العرفى:

فى الشعوبية. ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م.

بطرس البستانى:

أدباء العرب فى الأعصر العباسية، حياتهم، آثارهم، نقد آثارهم. بيروت، دار الجيل، دار مارون عبود، ١٩٧٩ م.

جميل جبر (دكتور):

- الجاحظ فى حياته وأدبه وفكره. بيروت، دار الكتب اللبنانية للطباعة والنشر، ١٩٦٨م.

- الجاحظ ومجتمع عصره. بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥٨م.

حسن إبراهيم حسن:

تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى (العصر العباسى الأول). مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٤٨م.

حسن السندوبى:

أدب الجاحظ. القاهرة، المطبعة الرحمانية بمصر،١٣٥٠ هـ/١٩٣١م.

حنا الفاخورى (الأب):

- تاريخ الأدب العربى. المطبعة البولسية، لا. ت.

- الجاحظ. القاهرة، دار المعارف ، ط٦، سلسلة نوابـــغ الفكـــر العربـــى، ١٩٨٠م.

خليل جفال (دكتور):

الشعوبية والأدب أبعاد ومضمونات. بيروت، دار النضال، ط١، ١٩٨٦م.

ديلاس أوليرى:

الفكر العربى ومكانه فى التـــاريخ. ترجمـــة د. تمـــام حســـان. مراجعـــة د. مصطفى حلمى. القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القـــومى. المؤسســـة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، لا.ت.

زاهية قدورة (دكتور):

الشعوبية وأثرها الاجتماعى والسياسى فى الحياة الإسلامية فـــى العصـــر العباسى الأول. بيروت، دار الكتاب اللبنانى، ط١، ١٩٧٢م.

سعيد حسين منصور (دكتور):

- دراسات فى النثر العربى. الإسكندرية، ١٩٨٥م.

- النثر العربى فى مراحل تطوره حتى نهاية القـــرن الثالـــث الهجـــرى. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٤١٨هـــ/١٩٩٧م.

سميرة مختار الليثى:

الزندقة والشعوبية وانتصار الإسلام والعروبة عليهما . القـــاهرة ، مكتبـــة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨م .

شارل بللا (دكتور):

الجاحظ فى البصرة وبغداد وســـامرَّاء. ترجمـــة د. إبـــراهيم الكيلانـــى. دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦١م.

شفيق جبرى (دكتور):

الجاحظ معلم العقل و الأدب، دار المعارف بمصر، لا.ت.

شوقى ضيف (دكتور):

– العصر العباسى الأول. القاهرة، دار المعارف، ط٦.

– العصر العباسى الثانى. القاهرة، دار المعارف، ط٢٦، ١٩٨٦م.

– الفن ومذاهبه فى النثر العربى. القاهرة، دار المعارف، ط١٠، ١٩٨٣م.

صموئيل عبد الشهيد:

الروح العلمية عند الجاحظ فى كتاب الحيوان. بيروت، دار الكتاب اللبنانى، ط١، ١٩٧٥م.

طه الحاجرى (دكتور):

الجاحظ حياته وآثاره. القاهرة، دار المعارف، لا.ت.

طه حسين (دكتور):

–حديث الأربعاء. القاهرة، دار المعارف، ط١٥.

عبد الحكيم بلبع (دكتور):

– النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه. القاهرة، لجنة البيان العربى، مطبعة الرسالة، ١٩٦٩م.

عبد السلام المسدّى (دكتور):

قراءات مع الشابى والمتنبى والجاحظ وابن خلدون . دار سعاد الصباح، ١٩٩٣ م .

عبد العزيز الدورى:

الجذور التاريخية للشعوبية. بيروت، دار الطليعة، ط١، ١٩٦٢ م.

عبد الله التطاوى (دكتور):

– الجدل والقص فى النثر العباسى. القاهرة ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، دار الثقافة والنشر والتوزيع، لا. ت.

- مستويات الحوار فى فنون النثر العباسى. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥م.

عبد المحسن عاطف سلام (دكتور):

الثورة البابكية وأثرها فى الأدب العربى. دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م.

على أبو ملحم (دكتور):

-الفلسفة مشكلات وحلول. بيروت، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٤ هـ/١٩٩٤م.

- المناحى الفلسفية عند الجاحظ. بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨٨م.

على شلق (دكتور):

أبو نواس بين التخطى والالتزام. بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م.

فاروق سعد (دكتور):

مع بخلاء الجاحظ. دراسة تحليلية مقارنة مع منتخبات. بيروت، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط٤، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

فوزى سعد عيسى (دكتور):

الترسل فى القرن الثالث الهجرى. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩١م.

فوزى عطوى (دكتور):

الجاحظ دائرة معارف عصره. بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

فيكتور شلحت اليسوعى (الأب):

النزعة الكلامية فى أسلوب الجاحظ. دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م.

كارل بروكلمان:

تاريخ الأدب العربى. ترجمة نخبة من المحققين. القاهرة، دار المعارف.

كاظم حطيط (دكتور):

مع ابن قتيبة فى مسار الصراع العربى الشعوبى. بيروت ، دار الهـادى، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

محمد أبو زهرة:

- تاريخ الجدل. القاهرة، دار الفكر العربى، لا.ت.
- تاريخ المذاهب الإسلامية فى السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية . القاهرة، دار الفكر العربى، لا.ت.
- الخطابة، أصولها وتاريخها فى أزهى عصورها. القـاهرة، دار الفكـر العربى، لا. ت.

محمد بديع شريف (دكتور):

الصراع بين الموالى والعرب "وهو بحث فى حركـة المـوالى ونتائجهـا فى الخلافة الشرقية". دار الكتاب العربى بمصر ، ١٩٥٤ م.

محمد توفيق حسين (دكتور):

مفهوم الإنسانية والعنصرية عند الجاحظ. بغداد، الموسـوعة الصـغيرة، دار الحرية للطباعة، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م.

محمد زغلول سلام (دكتور):

- دراسات فى الأدب العربـى، العصـر العباسـى. منشـأة المعـارف بالإسكندرية، لا.ت.

محمد الطيب النجار:

الموالى فى العصر الأموى. دار النيل للطباعة، ط١، ١٣٦٨ هـ/١٩٤٩م.

محمد عبد الغنى الشيخ (دكتور):

النثر الفنى فى العصر العباسى الأول اتجاهاته وتطـوره. الـدار العربيـة للكتاب، ١٩٨٨م.

محمد عبد المنعم خفاجى (دكتور):

- أبو عثمان الجاحظ. بيروت، دار الكتاب اللبنانى، ط١، ١٩٧٣م.

- الأدب العربى وتاريخه فى العصرين الأموى والعباسى. بيروت، دار الجيل،١٤١٠ هـ/١٩٩٠م.

محمد عمارة (دكتور):

- العرب والتحدى. كتاب الهلال، ديسمبر١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٢م.

محمد كرد على:

- أمراء البيان. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م.

محمد مصطفى هدارة (دكتور):

- اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى. دار المعرفة الجامعية، لا.ت.

محمد نبيه حجاب (دكتور):

- الصراع الأدبى بين العرب والعجم. القاهرة، المكتبة الثقافية، سبتمبر ١٩٦٣ م .

- مظاهر الشعوبية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى . مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١م.

مصطفى الشكعة (دكتور):

- مناهج التأليف عند العلماء العرب، قسم الأدب. بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٢م.

مصطفى الصاوى الجوينى (دكتور):

مدارس التفسير القرآنى. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥م.

مونتغمرى وات:

الفكر السياسى فى الإسلام والمفاهيم الأساسية. ترجمة صبحى حديدى. بيروت، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، لا.ت.

ميشال عاصى (دكتور):

مفاهيم الجمالية والنقد فى أدب الجاحظ. بيروت، مؤسسة نوفل، ط٢، ١٩٨١م.

نجاح محسن (دكتور):

الفكر السياسى عند المعتزلة. القاهرة، دار المعارف.

نكلسن:

تاريخ الأدب العباسى. ترجمة صفاء خلوصى. بغداد، المكتبة الأهلية.

هاملتون جب:

دراسات فى حضارة الإسلام. ترجمة د. إحسان عباس، و د. محمد يوسف نجم، و د. محمد زيدان. دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٧٩م.

وديعة طه النجم (دكتور):

- الجاحظ والحاضرة العباسية. بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٦٥م.
- الجاحظ والنقد الأدبى. الكويت، حوليات كلية الآداب، الحولية العاشرة، الرسالة التاسعة والخمسون، ١٤٠٩ - ١٤١٠هـ / ١٩٨٨- ١٩٨٩م.

ول . ديورانت:

قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران (عصر الإيمان). الجزء الثانى، المجلد الرابع. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، لا.ت.

وليد قصاب (دكتور):

التراث النقدى والبلاغى للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجرى. الدوحة، دار الثقافة، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

ثالثاً : المجلات والدوريات والموسوعات

دائرة المعارف الإسلامية. النسخة العربية. إعداد وتحرير: إبراهيم زكـى خورشيد، وأحمد الشنتناوى، وعبد الحميد يـونس. كتـاب الشـعب، ط٢، ١٩٦٩م.

ضياء الصديقى (دكتور):

فنية القصة فى كتاب البخلاء والجاحظ. عالم الفكـر، المجلـد العشـرون، العدد الرابع، ١٩٩٠م.

طه الحاجرى (دكتور):

أبو عبيدة . مجلة الكاتب المصرى. مجلد ٢، عدد ٦، مارس ١٩٤٦ م .

رابعاً : الرسائل الجامعية المخطوطة

عبد الفتاح على عفيفى الأسود (دكتور):

الجاحظ وأثره فى النقد الأدبى والنثر الفنى خلال النصف الأول من القـرن العشرين (رسالة دكتوراة مخطوطة). إشراف أ. د. عبد الحميد طه حميدة. نوقشت بقسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية. جامعة الأزهر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

على محمد السيد خليفة (دكتور):

- أدب الجاحظ فى صلته بتيارات عصـره السياسـية. رسـالة دكتـوراة مخطوطة، نوقشـت بقسـم اللغـة العربيـة، بكليـة الآداب، بجامعـة الإسكندرية، تحت إشراف الأستاذ الـدكتور/سـعيد حسـين منصـور، سنة ٢٠٠٤م.

– فن المناظرة حول الحيوان فى أدب الجاحظ.رسالة ماجستير مخطوطة. إشراف أ. د. سعيد حسين منصور. نوقشت بقسم اللغة العربيـــة بكليـــة الآداب، بجامعة الإسكندرية، ١٤٢٠هــ/ ١٩٩٩م.

خامساً : المراجع الأجنبية

DR . SAID H . MANSUR :
THE WORD – VIEW OF AL – JAHIZ IN K. AL – HAYAWAN (ALEXANDRIA, DAR AL MAAREF, 76 – 1977) .
ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM NEW EDITION, LEIDEN, 1971 .